الألمان يستقبلون الوحدة بارتياب

هاينريش أوغست فينكلر

انقضت عقودٌ والألمان يائسون من إعادة وحدتهم القومية. ثم إنّ هذه الوحدة التي لم يعودوا يتوقّعونها تقع عليهم هدية من السماء. فكيف تكون الآن تصرفات الألمان ومواقفهم بعد أن اتّحدوا؟ هذا ما يبحث فيه المقال التالي الذي كتبه هاينريش أوغست فينكلر، عالم التاريخ بمدينة فرايبورغ.

سواء أماتت الماركسية أم لم تَمُت، فالجدلية مازالت حيّة. وعلى كلّ حال، مازال التاريخ يأتي بالمفاجآت ويحمل معه من التناقضات ما تعقّد وعسر حلّه. أمّا الألمان فقرّبت العقود إلى أذهانهم فكرةً فتعودوها، مفادها أنّ نهاية الدولة القومية الألمانية لها مبرّراتها العادلة، ولذا فإنّ حلّ المسألة الألمانية لا يمكن أن يتمّ على مستوى الدولة القومية. ثم يبيت الألمان ويصبحون، فإذا هي الوحدة التي فقدوا الأمل فيها أو كادوا، وإذا هي الدولة القومية الجديدة التي لم يسعوا إليها ولم يجتهدوا. فهل يهضم الألمان هذا الحدث الذي كان فوق المطمع؟ وهل يعرفون كيف يتصرفون في هذه المرحلة الجديدة من تاريخهم؟

ليس في أوروبا من بلد يسيء أهله الظنّ بالدولة القومية إساءة الألمان بها. والسبب واضح معروف، فليس من بلد فشلت فيه الدولة القومية فشلها الفظيع المريع في ألمانيا. فالدولة القومية الألمانية، وهي الرايخ الذي أسّسه بيسمارك عام 1871 قد حطّمت نفسها بنفسها قبل أن يحتلّها الحلفاء المنتصرون ويجزّئوها في أعقاب الحرب العالمية الثانية التي أشعلتها هذه الدولة، بعد أن أشعلت الأولى. وقد سبق الأسباب الخارجية التي أدّت إلى ضياع الدولة الألمانية في 1945 أسبابٌ داخلية، دارت أحداثها من قبل اثني عشر



أوتو فون بيسمارك ص
الرايخ الألماني. تمثـ
برونزي من نحو عام (
الارتفاع 200cm

عاما. فعندما تحوّلت السلطة إلى هتلر في 30 يناير 1933 انتهت حياة جمهورية فايمار القصيرة، وهي أوّل حقبة ديمقراطية في ألمانيا، وانتهى معها شيء آخر كان أقدم منها كثيراً: الدولة الألمانية الدستورية ذات القانون. وما كان من سبيل إلى دفع الضياع والسقوط عن الدولة القومية الألمانية سوى أن ينهض الألمان فيطيحوا بالدكتاتورية الهتلرية بمجهودهم الذاتي، لكنّ ذلك لم يحصل.

زال الرايخ الألماني بعد الهزيمة العسكرية الشاملة التي لحقت به. كان هذا السببَ الخارجي. أمّا السبب الداخلي لانحلال هذه الدولة، فجذوره بعيدة، تمتدّ إلى التناقضات التي خلقها تأسيس الدولة القومية في 1871.

وفي ثورة 1849/1848 من قبل، أخفق الليبراليون والديمقراطيون في تحقيق الوحدة الألمانية والحرية معا. ثمّ جاء بيسمارك فأسّس الرايخ، فكان ذلك بمثابة «ثورة من فوق» كما رآها هو ورآها معاصروه. وقد حقّق بيسمارك الوحدة الألمانية المنشودة، ولكن في «إطارها الصغير»، أي باستثناء النمسا. فحلّ المسألة الألمانية على هذا النحو كان وقتذاك أنسب لمصالح الدول الأوروبية من حلّ يشمل «ألمانيا الكبرى» التي إن كانت، تكُنْ أقوى وأعظم. وكان الحلّ الصغير مناسبا أيضا للأوساط الليبرالية من نهر الماين فشمالا، وخاصّة لليبراليين في بروسيا. فأغلبهم كان بروتستانتيا، وكانوا يرغبون عن الوحدة مع النمسا الكاثوليكية إذ رأوها دولة متعدّدة القوميات متخلّفة اقتصاديا، فهي تركة من القرون الوسطى، يتعسر دمجها في الدولة الجديدة.

حقّق بيسمارك وحدة الألمان، لكنّه ضنّ عليهم بالحرية كما يقتضيها النظام البرلماني الذي ينتهي إلى سيطرة البرجوازية الليبرالية. واستجاب بيسمارك بعد انتصار بروسيا على النمسا في عام 1866، إلى مطالب الليبراليين التي لا تتعارض مع مصالح الطبقة البروسية القديمة الحاكمة، وهي تشمل القصر، والنبلاء والجيش، وكبار الموظّفين. وهكذا أطلق العنانَ للبرجوازية الليبرالية في مجالات الثقافة، والاقتصاد، وفي مجال التشريع حيث حققت شيئا كبيرا من تصوّراتها. لكن بيسمارك منع عن هذه البرجوازية مركز سلطة الدولة، سلطةِ الحكومة الحقيقية في مملكة بيسمارك التشريعية.

وتأسّى الليبراليون القوميون، وهم جناح في الحزب



ف. فولكر، ثورة 1848: إعلان وقف إطلاق النار في فرانكفورت. نقش على الحجر، 1948

الليبرالي يميلون إلى التعاون مع بيسمارك، بأنّ «الوحدة نفسها بعض من الحرية ليس قليلاً» كما قال قائلهم في ديسمبر 1866 مخاطبا المنتخبين في منطقة راين هيسّن. كانت إذن المطالبة بالوحدة الألمانية عند الليبراليين، وعند الحركة العمالية الفتية أيضا، دعوة إلى الحرية والتقدّم ومناهضة لملوك الألمان الكثيرين وأتباعهم من النبلاء.

وظلّ الليبراليون واليساريون رافعين الشعار القومي ومناضلين من أجله إلى أن تأسّس الرايخ. غير أنّ الليبراليين القوميين لم يبطئوا بعد 1871 في طمس هذا الشعار ونزع بريق الحرية منه، إذا تحالفوا مع بيسمارك أثناء المرحلة المعروفة «بالكفاح الثقافي»، فهاجموا الكاثوليكيين الموالين للكنيسة، وشهّروا بهم، ناعتينهم بأنّهم ألمان من الدرجة الثانية وأعداء للرايخ. وقيل كذلك في الديمقراطيين الاشتراكيين الذين لاحقهم بيسمارك مدّة استمرّت من 1878 إلى 1890 مستخدماً قانوناً استثنائيا ساهم الليبراليون القوميون في سنه.

تحوّل مصطلح «القومية» منذ أواسط سبعينات القرن الماضي من شعار يساري إلى شعار يميني. وبات هذا الشعار يستخدم ضدّ الاشتراكية الديمقراطية ذات الطموحات العالمية، وضدّ نظرية التجارة الحرّة التي ووجهت برسوم جمركية عالية فيما سُمّي وقتئذ «حماية الشغل القومي». وظهر المحرّضون المعادون للسامية مدّعين أنّ


AUGUST 1914



جلبير روجيه، المسموم زيت على كتّان، 122x172,5

ـدريش أوغست فون
لباخ، جرمانيا 1914 . ألوان
ية على قطن، 192x147

اليهودية العالمية هي المحرّك للحركة العمالية ولرأس المال العالمي، أي أنّ تلك اليهودية كانت تقود «الأممية الحمراء» و«الأممية الذهبية» معاً، كما كان يقال. وتحوّل هكذا مفهوم القومية، فصار يعني في الدرجة الأولى معاداة العالمية، ثمّ معاداة اليهود في كثير من الحالات.
لم تتمكّن دولة الألمان القومية أن تتخطّى تماما التصوّرات التي كانت لها عن الأعداء الداخليين في بداية نشأتها. فلم يشفع كثيرا للديمقراطيين الاشتراكيين أنّهم صادقوا في شهر أغسطس 1914 على ديون الحرب التي طلبها الرايخ، وأنّهم هبّوا، كسواهم من الألمان، لحمل السلاح. وظلّت بعض الأوساط القومية حتّى إلى عهد جمهورية فايمار ترى في الديمقراطيين الاشتراكيين «عناصر لا وطن لهم». وطائفة أخرى أسيء الظنّ بها، الكاثوليكيون الذين لم تنقطع التحفظات إزاءهم والظنون بهم طيلة أوّل حكم ديمقراطي في ألمانيا، حتّى أنّ سياسيا كاثوليكيا، وهو هاينريش برونيغ، مستشار الرايخ من 1930 إلى 1932 لم ير بدّاً من المزايدة في مواقفه القومية سعيا منه إلى إزالة بعض من تلك الظنون والتحفّظات.
نستطيع أن نقوّم جمهورية فايمار التي انبعثت من ثورة 1919/1918 على أنّها محاولة لحلّ التناقض الرئيسي في الإمبراطورية الألمانية. وكان طرفا هذا التناقض، التقدّم الثقافي والاقتصادي من جهة، وتخلّف النظام السياسي من جهة أخرى. وعمل على عرقلة هذه المحاولة عاملان من مخلّفات الملكية: كُرْهُ قسم كبير من الصفوة التقليدية للحكم البرلماني الجديد، ثمّ قصور كثير من الديمقراطيين عن إيجاد الحلول الوسط التي لولاها لا يمكن أن تساس دولة متعدّدة الأحزاب سياسةً ديمقراطية. فجاء الانتقال في عام 1930 إلى نظام استثنائي مسنود إلى رئيس الرايخ، وهو رئيس الدولة، ليكون نهايةً لمرحلة فايمار من حيث هي ديمقراطية برلمانية وعودة إلى حكم السلطة التنفيذية في شكل بيروقراطي.
لكنّ عجلة التاريخ لم تعد سهلة الإعادة إلى الخلف، فقد تعوّد الألمان منذ ستة عقود الحقَّ العام للرجال في الانتخاب، ومنذ 1918، صارت الحكومات رهينة بثقة البرلمان، أي بثقة الشعب على نحو غير مباشر. ولما حاولت الحكومات بعد 1930 أن تطمس إرادة الجماهير، اشتدت حركة الاحتجاج وعمّت. وكان النازيون، وهم حزب هتلر، أكثر الأحزاب تأثيرا في حركة الاحتجاج تلك، إذ هم وجّهوا بدعاياتهم في اتّجاهين مدروسين: اتّجاه يساير مطالب الجماهير في المساهمة السياسية، واتّجاه يغذّي الحفيظة العامة على النظام البرلماني الجديد بزعم أنّه نظام من أصل غير ألماني، يزيّف إرادة الجماهير. أما ما كان النازيون يريدونه بديلا للديمقراطية البرلمانية والنظام الرئاسي فدولة الفهرر المنتخب بالاستفتاء العام التي زعموها ممثّلة لإرادة الشعب الحقيقية.
كانت ألمانيا الدولة الصناعية الكبيرة الوحيدة التي تخلّت أثناء الأزمة المالية العالمية عن نظامها الديمقراطي وبدلّته نظاما مستبدّا، يُخضع الفرد للدولة إخضاعا تاما. ولا تفسير لهذه «الطريق الخاصة» التي سلكتها ألمانيا سوى طول عهدها بسيطرة السلطة التنفيذية أو، إذا أردت، قصر عهدها بالديمقراطية. ولكن من المؤكّد أنّ التاريخ لم يشهد قطّ «طريقا عادية» أدّت إلى الديمقراطية الليبرالية بصورة طبيعية في مكان من الأماكن. فيمكنك أن تقول إنّ التاريخ كلّه تاريخ «للطرق الخاصة»، ولكنّك تستطيع أن تضيف، بالنظر إلى ألمانيا، أنّ بعض الطريق أخصّ من بعض.
وكان من شروط النجاح الذي لقيه هتلر ذلك الاقتناع العام بأنّ ألمانيا لم تتسبّب في الحرب العالمية الأولى أكثر ممّا تسبّب فيها غيرها من الدول التي تورّطت في تلك الحرب. وعلى هذا الأساس، تكون معاهدة فرساي قد كرّست ظلما صارخا وجورا بعيدا. ومع أنّ الوثائق الألمانية التي عُلِم بها منذ 1919 تظهر بما فيه الكفاية أنّ قيادة الرايخ كانت تسعى إلى الحرب وتحرّض عليها خلال أزمة يوليو من عام 1914، فإنّ خرافةً قد انتشرت في الناس تقول - على نسق الطعنة من خلف - بأنّ خونة «ماركسيين» غدروا بالجبهة المقاتلة وأوقعوا بها متسبّبين في الهزيمة العسكرية التي لحقت بألمانيا. أمّا بعد الحرب العالمية الثانية، فكان الرأي السائد أنّ ألمانيا النازية هي التي أشعلت هذه الحرب، ولم يخالفه سوى مجموعات قليلة من السادرين في الغي. وقد سهّل هذا الرأي القطيعة الأخلاقية بين الألمان والنازية.
وكذلك كانت القطيعة السياسية والاجتماعية بين الألمان والنظام المنهار في 1945 أعمق كثيرا منها في 1918. فقد غابت السلطة السياسية واختفت، وغابت معها السلطة

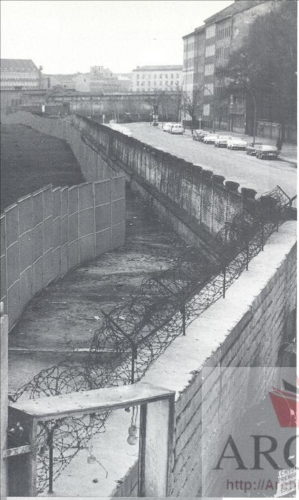


رمزٌ للتصالح الألماني الفرنسي: المستشار كونراد أديناور والرئيس شارل دي غول في كاتدرائية مدينة ريمس في 1962.7.8

العسكرية، وشُرّد الإقطاعيون الذين في شرق نهر ألبه ونُزعت ملكيتهم. وقد كان لهم الدور الحاسم في تحطيم النظام الجمهوري الأوّل ونَقْل السلطة إلى هتلر. فلمّا انتهت الحرب سُحبت الأرض من تحت أقدامهم، حقيقةً لا مجازا. وفي 1947، قرّر مجلس الرقابة الذي شكّله الحلفاء إلغاء بروسيا من حيث هي كيان متميّز. وقد كانت بروسيا فقدت استقلالها كدولة بعد أن قلب «مجلس البارونات» نظام الحكم في 20 يوليو 1923، ثمّ تشدّد النازيون، بعد 1933، في مساواة بروسيا بالمقاطعات الألمانية الأخرى.

إنّ عمق القطيعة التي كانت في عام 1945 يفسّر كثيرا من الأسباب التي جعلت بون تسلك طريقا ليست كالطريق التي سلكت فايمر. لكنّ الفرصة لممارسة الديمقراطية مرّةً ثانية لم تُمنَح إلاّ جزءاً من ألمانيا. وظلّت الحكومات التي قادها المستشار أدناور في جمهورية ألمانيا الاتّحادية تؤكّد تعلّقها بالوحدة مع جزء ألمانيا الآخر، غير أنّها لم تسع إلى تحقيقها عمليا. وعلى كلّ حال، فقد رأى المستشار أدناور أنّ ثمن الوحدة الألمانية ـ إذا حصل أن تمت ـ ثمن أبهظ من أن يُدفع. وكان محقّا في رأيه، فألمانيا الموحّدة تكون عندئذ محايدة، ممّا يعود بأوروبا إلى عهد المنافسات القومية ويغيّر توازن القوى في صالح الاتّحاد السوفياتي. ثمّ إنّ الألمان وقتئذ لم يكونوا هضموا بعدُ فقدان المناطق الشرقية، وهذا وحده كافٍ لتقوية التيّار القومي، فإذا أصبحت ألمانيا معزولةً، جرفها هذا التيار، فيحدث ماكان أدناور وألمان كثيرون يشفقون منه شديد الإشفاق، وما كان يشفق منه جميع جيران ألمانيا أيضاً.

وهكذا، لم تكن إعادة الوحدة إلى دولة قومية ألمانية همّ أدناور الأهمّ وإنّما كان أكثر ما يسعى إليه تحقيقَ السيادة الكاملة لجمهورية ألمانيا الاتّحادية وشدّها إلى أوروبا الغربية بعلاقات قويّة لا تنحلّ. أمّا توحيد ألمانيا من جديد، فلم يكن أدناور، أوّل مستشار لجمهورية ألمانيا الاتّحادية، يراه شيئا مرغوبا فيه إلاّ إذا تحقّق أن تكون ألمانيا الموحّدة عندئذ جزءا من الغرب، مثلما جمهورية ألمانيا الاتّحادية جزء منه. ولمّا كان قيام الوحدة الألمانية على هذا النحو غير ممكن في مدى يمكن تقديره، فإنّ الالتزام اللفظي بالوحدة الذي كان أدناور يكرّره خدم في الأساس غرضا سياسيا داخليا: تمكين أدناور كلّ مرة من جمع



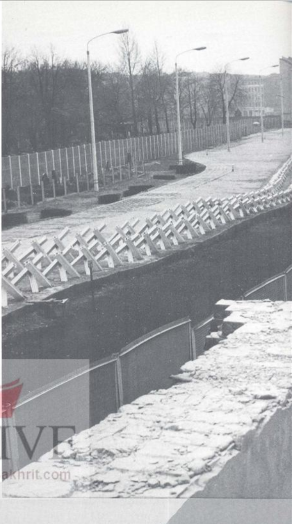
كان حائط برلين يفصل على طول نحو 160 كيلومتراً برلين الغربية عن الشرقية، وقد أقيم في 1961، وسدّ آخر ثغرة غير محصّنة بين الدولتين الألمانيتين.

الأغلبية التي يحتاج إليها لإمضاء سياسته، ولو أنه عرض أهدافه الحقيقية وصرّح بما يقدّم في السياسة ويؤخر لما تهيّأ له أن يجمع ما جمع حوله من المساندين. ومن الممكن، لو أنّ أدناور عاش وشهد أحداث 1990، أن يعلّق عليها بمقوله المشهور «آن الأوان». وفعلا، فتوحيد ألمانيا كما تمّ مؤخرا هو الحلّ الوحيد للمسألة الألمانية الذي كان أدناور يقبل به. لكنّ هذا الحلّ ما كان له أن يتهيّأ لولا السياسة الشرقية لمستشارين اتّحاديّين من الحزب الاشتراكي الديمقراطي جاءا بعد أدناور.

وكان أدناور مؤمنا بالمصير الأوروبي المشترك، فلمّا حكم، تزعّم الحزب الاشتراكي الديمقراطي مسألة إعادة الوحدة، جاعلاً نفسه على رأس قضية القومية في جمهورية ألمانيا الاتّحادية. لكنّ هذا الحزب اعتبر بناء سور برلين في



فيلي براند في حيّ اليهود بفرسوفيا: الحكومة الاتّحادية تعترف بأوضاع مابعد الحرب في شرق أوروبا



عام 1961 واستنتج منه أن تقسيم ألمانيا تكرّس أكثر فأكثر في ظلّ «سياسة القوة». اتجهت السياسة الألمانية بعدئذ إلى اتّجاه جديد، ظهر، أوّل ما ظهر، عام 1963 في معاهدة برلين الأولى حول ترخيص المرور، وبلغت تلك السياسة قمّتها بإبرام براند وشيل الاتفاقيات الشرقية. فإقرار ألمانيا الاتّحادية بحقائق ما بعد الحرب في شرق أوروبا الوسطى، بما فيه الاعتراف بدولة الجمهورية الألمانية الديمقراطية، كان محرّكا لعملية التحوّل التي خلصت إلى الثورات السلمية في عام 1989.

والحقّ أنّ ماكان يُكتب في الافتتاحيات ويذاع في خطب المناسبات في جمهورية ألمانيا الاتّحادية من مطالبة بتوحيد الدولة الألمانية من جديد لم يقدّم حركة الانتقال والتحوّل في الجمهورية الألمانية الديمقراطية، بل من الجائز أن يكون أخّرها. وحتّى خريف 1989، كان حزب هونيكر، وهو الحزب الاشتراكي الموحّد SED، يبرّر منعه للإصلاحات باختيارين لا ثالث لهما: «إمّا نحن وإمّا الوحدة من جديد». وظلّ هذا التبرير زمنا طويلا مقنعا للكثيرين، ومنهم غورباتشوف. وهكذا كانت الدلائل كلها تشير، لا إلى إزالة الجمهورية الألمانية الديمقراطية، وإنّما إلى خلق أوضاع ديمقراطية فيها، أي أنّ الحال كانت تقتضي أن تُتخذ الحرية، لا الوحدة، هدفا أوّلا للسياسة المتعلّقة بالمسألة الألمانية.

وكان أصحاب هذا الرأي يعقدون أملا على القوى الإصلاحية في الجمهورية الألمانية الديمقراطية ويقدّرون أنّ هذه القوى ذات خطر، منتشرة في البلاد وحتّى في الحزب الاشتراكي الموحّد. لكنّنا نعلم اليوم أن تأييد الشعب لمجموعات المعارضة كان أضعف كثيرا ممّا كُنّا نتصوّر، وظلّ موقف السواد الأعظم، أو «الأغلبية الصامتة» كما يقال هنا، موقف انتظار وتربّص إلى أن انهزم الحزب الاشتراكي الموحّد ورضخ لضغط الظروف، هنالك ارتفعت الهتافات مرددة: «ألمانيا وطن متّحد». وما كانت الأحداث تجري أبدا على ما جرت عليه لو أنّ الاتّحاد السوفياتي اتّخذ قرارا في أكتوبر 1989 بتقديم «دعم أخوي» للجمهورية الألمانية الديمقراطية. فعدم تدخّل الاتّحاد السوفياتي جعل وحدة الدولتين الألمانيتين ممكنة، وإرادة الألمان في الجمهورية الألمانية الديمقراطية جعلت هذه الوحدة لازمة.

وما كانت الوحدة الألمانية لتكون لو أنّ الدول الكبرى وأوروبا توقّعت منها نشوء رايخ ألماني جديد، أي دولة قومية مستقلة من النمط التقليدي. أمّا ألمانيا الموحّدة، فلن تكون دولة من هذا النمط، ولن تتراجع فيها خاصيّتا الفيدرالية والتعدّد الثقافي عمّا كانا عليه في جمهورية ألمانيا الاتّحادية قبل الوحدة. ثم إنّ ألمانيا الموحّدة مرتبطة من بداية أمرها بالمجموعة الأوروبية وبالحلف الأطلسي الذي هو شارع الآن في إيجاد صيغة للأمن الأوروبي تقوم على التعاون. فهذا الارتباط المتجاوز للحدود القومية، وقبول ألمانيا بجعل قوّتها العسكرية محدودة، وزهد ألمانيا في امتلاك الأسلحة الذرية والكيميائية والبيولوجية، كلّ هذا كان للوحدة مقدّمة سياسية. وهكذا نرى الدولة القومية الألمانية، في حين نشوئها، قد نقضت نفسها إلى حدّ ما.

ونعم ما فعلت: فأوّلا، ليس من مصلحة الألمان أنفسهم - وبلدهم أكثر بلاد أوروبا الواقعة في غرب نهر بوغ سكّاناً - أن تفضي قوّة ألمانيا الاقتصادية إلى السيطرة على أوروبا. وثانياً، لن يتهيّأ لألمانيا أن تساهم في التغلب على تجزئة القارّة الأوروبية وفي دفع خطر العودة إلى سياسات المصالح القومية ما لم تتجه في اتّجاه أوروبي واضح، لا تلوي عنه.

ونظرةٌ يسيرة إلى التاريخ الألماني تكشف أنّ ما يحدث حاليا في ألمانيا ليس هو رجوعا إلى أوضاع الدولة القومية المستقرة. فالاستقرار لم يكن في ألمانيا أبدا: عاش داخل حدودها في عهد الرايخ الذي أسسه بسمارك أقليات مهمّة هي البولونيّون، والدانماركيون، والألزاسيون، واللورينيون. وكان هؤلاء جميعا راغبين في الانفصال عن ألمانيا، ساعين إليه. وبعد 1918، لم يكن الألمان راضين بما بقي لهم من أرض، وطالبوا باسترجاع كثير من المناطق المتنازل عنها لبولونيا، كما طالبوا «بضمّ» النمسا إلى ألمانيا. أمّا ألمانيا المتّحدة في عام 1990، فترى أرضها كاملة غير منقوصة - باستثناء رأي بعض الموظّفين في منظّمات اللاجئين - كما أنّ ألمانيا خالية من مشاكل الأقليات التي لم توضع لها حلول.

إلّا أنّ الاتّصال التاريخي لم ينقطع بين الدولة القومية الجديدة ودولة 1871، إذ كان الاختيار واحدا في الدولتين كلتيهما: «ألمانيا في إطار صغير». وأخطأ من زعم حتّى الآن أنّ دول ألمانيا ثلاث: جمهورية ألمانيا الاتّحادية،



المخزن، ومن خلفه قبّة الكنيسة وبرج التلفزيون
(في برلين الشرقية سابقاً)

والجمهورية الألمانية الديمقراطية، والنمسا. فلْيُصَحّحْ كلّ زاعم من هذا القبيل معلوماته وَلْيَعْلَمْ أنّ ألمانيا كانت دولتين فاتّحدتا. أما النمسا فليست دولة ألمانية لأنّها لا تريد أن تكون كذلك. وينبغي لنا أن نعيد النظر أيضا في بعض الصيغ والنظريات التي ظهرت في هذا الصدد. من ذلك، مثلاً، النظرية القائلة بأنّ المواطنين في جمهورية ألمانيا الاتّحادية يستطيعون أن يدلّلوا على هويّتهم دلالةً كافية إذا هم عرّفوا دولتهم بأنّها «دولة ديمقراطية في مرحلة ما بعد القومية». فضعف هذه النظرية واضح. ونظرية أخرى فنّدتها الأحداث الأخيرة، نظرية أولئك الذين زعموا في بداية الثمانينات أنْ قد بدأت عملية تَكَوّن «أمّتين» في قسمي ألمانيا. وما كان ظاهر الأمر إلّا كسلاً من جانب ألمانيا الاتّحادية ودعاية من جانب الحزب الاشتراكي الموحّد. ولم يكن أبدا لنظرية الأمّتين الألمانيتين من أساس أخلاقي تقوم عليه، وهكذا، فهي لم تترك أثراً يذكر في الحوار الفكري.

على أنّه يُخشى أن تصير صيغة «الأمّتين الألمانيتين» عمّا قليل دليلا على شيء آخر، قد قصد إليه بنجامين دزرايلي في عام 1845 عندما رمز بهذه الصيغة إلى الفرق الكبير بين الأغنياء والفقراء. والفرق كبير بين الألمان في الغرب والألمان في الشرق من حيث مستوى الرخاء، إذ ينخفض هذا المستوى درجات في الشرق، وقد اتّضح هذا الانخفاض للرأي العام أكثر من ذي قبل بعد الوحدة النقدية. وهكذا، وممّا يوهم التناقض، قد يصبح وصف



برلين: كنيسة الذكرى التي تُركت بعد إصابتها في الحرب خراباً عِبرةً للأجيال، وإلى جانبها مبنى الكنيسة الجديد.

الألمان في زمن الوحدة بأنّهم أمّتان أقرب إلى الحقيقة منه إليها في زمن التجزئة التي طالت أربعة عقود. وليس التفاوت بين الألمان غرباً وشرقاً مقصوراً على الماديات، فقد كانت لهم حتّى الوحدة طرائق حياتية وتجارب من عالمين مختلفين كلّ الاختلاف، يتواجهان الآن في ألمانيا الموحّدة بكلّ ما تخلقه مواجهة كهذه من توتّر.

وعلى هذا، ينبغي للألمان الغربيين - تخطيا لمخلّفات التجزئة - أن يبذلوا التضحيات المادية، رغم أنّ المستشار الاتّحادي جادل مدّة في ضرورة مثل هذه التضحيات. كما ينبغي للألمان أن يهيّئوا أنفسهم للظروف الجديدة ويغيّروا كثيرا من آرائهم ومواقفهم، وهذا، بالطبع، أصعب من إنفاق المال. وعليهم أن يرتقوا بالوطنية من مفهومها الدستوري إلى مفهوم يشمل التضامن، وألاّ يتركوا كلّ شيء على ماكان عليه، لا يغيرون منه بدعوة أنه هكذا كان. وفي هذا الصدد، يكون من الحكمة طرح دستور ألمانيا الموحّدة للاستفتاء العام، فيكتمل إثبات شرعية هذا المجتمع الجديد إثباتا ديمقراطيا، مع أنّ الدستور الجديد سيطابق، بدون شك، دستور 1949 إلى حدّ بعيد. وفي هذا الصدد أيضا يتعيّن النظر إلى مسألة العاصمة الجديدة من حيث هي مدينة تشهد بنفسها عملية التحام الشطرين الألمانيين، فتدعمها عن تجربة ووعي. وسواء أبقيت بعض الوزارات في بون أم ارتحلت عنها، فإنّ العاصمة السياسية في ألمانيا لن تكون إلاّ برلين. أمّا بون فقد تتحوّل إلى ما يشبه العاصمة الإدارية.

كما تدعو أسباب أوروبية، علاوة على الأسباب التي ذكرنا، إلى أن تكون برلين عاصمة ألمانيا. فألمانيا الموحّدة مدينة بالكثير للأنظمة الديمقراطية الجديدة في شرق أوروبا الوسطى، ولا بدّ لها من أن تقضي دَيْنها: فبولونيا هي التي بدأت تلك الثورة السلمية التي انتشر روحها، وامتدّ إلى الجمهورية الألمانية الديمقراطية وآل إلى تخلّص الألمان الشرقيين من نظامهم الديكتاتوري. والمجر هي التي ساهمت أكثر من أيّة دولة أخرى في خرق السور وفتح الحدود الألمانية الداخلية. ثم إنّ بولونيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا ليست أبعد انتسابا إلى أوروبا من الألمان الشرقيين إليها، لكنّ هذه الدول سوف تتأخر عنهم كثيرا في الالتحاق بالمجموعة الأوروبية. يجب إذاً على ألمانيا أن تصير في المجموعة الأوروبية المتكلّم بلسان هذه الأنظمة الديمقراطية الجديدة. وبرلين، إذا صارت العاصمة الفعلية - لا الشكلية - لألمانيا، تكون عندئذ مؤشّراً إلى أنّ أوروبا أكبر من البلاد التي ادّعت لنفسها هذا الاسم حتّى الآن. فالتوحيد بين غرب أوروبا ووسطها عملية تستوجب الرموز، وما نرى برلين إلاّ رمزاً منها.

لقد احتُجّ كثيرا بالماضي الألماني في الاعتراض على أن تعود برلين عاصمةً. لكنّ هذا الماضي نفسه هو في الحقيقة حجة لصالحها، إذ لا يمكن في هذه المدينة تناسي تاريخ الدولة القومية الألمانية، ولاسيا تاريخ النازية وجرائمها الفظيعة. فبرلين تحمل على التفكير في التاريخ الألماني الحديث، إنّها مرآة الأمّة الألمانية. كما يستوجب تلاحُم الشطرين الألمانيين أن يتفكّرا في التاريخ الألماني معا، في حقبته إذ عاشا في وحدة، وفي حقبته إذ كانا منفصلين. وبرلين - إذا عادت عاصمةً - تشجّع عملية التفكير هذه وتغذّيها. وهذا سبب آخر من أسباب الرغبة عن الحلول السهلة في تقرير مسألة العاصمة الألمانية.

وبعدُ، فإنّ الوحدة في دولة اتحادية هي الصيغة التي تحقّقت الحرية فيها لأولئك الألمان الذين حُرموها حتّى الخريف من عام 1989. والوحدة، هذه المرّة، لم تُستخدَم ضدّ الحرية، ولم تُجعَل بديلا لها، كما حصل في الفترة التي مهّدت لتأسيس أوّل دولة قومية ألمانية. ومهما تكن المصاعب التي ستجيء بها عملية الوحدة للألمان، فإنّنا لم نتبيّن إلى الآن «طريقا ألمانية خاصّة». (DIE ZEIT) ●

القيصر والأسطورة

في الذكرى الثمانمائة لوفاة القيصر فريدريش الأول بربروسا

بيتر هوفمايستر

كان هيغل وتلاميذه يرون في المملكة الألمانية تراثا من العهود البعيدة، تلك المملكة التي بدأت عواصف الثورة الفرنسية تزعزعها في أواخر القرن الثامن عشر وتهزّ أركانها. وبصورة طبيعية، طالب أتباع هيغل والأوساط القومية المحافظة «بإحياء ذكرى أبطال التاريخ الوطني من العهود القديمة» سعيا إلى صقل الشعب الألماني من الناحية الأخلاقية السياسية وربطه بمجده القديم. وكان أصحاب هذا الرأي يرون في شخصية القيصر فريدريش الأول بربروسا رمزاً تجتمع حوله كلّ الآمال في الإحياء الوطني. وبربروسا بات أسطورة تذكّر بعهود مجد الألمان الغابرة. وقد قاد الحملة الصليبية الثالثة ومات في طريقه إلى القدس: سبح في نهيربقليقيلة في آسيا الصغرى، فغرق ومات. وفي أواخر القرن التاسع عشر خاصّة أصبح بربروسا رمزا لقومية الرايخ الألماني، بعد أن كان لا يُذكر قبل 1871 إلّا السلالات الكثيرة والأمراء المحليون. والحقيقة أنّ شخصية بربروسا الأسطورية لم تضمحل قطّ من ذاكرة الألمان. ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهرت نهضةٌ للفنون والآداب التي كانت فيها قبل القرون الوسطى، وخاصة في عهد سلالة شتاوفر. بدأت في هذه النهضة شخصية بربروسا تشتهر أكثر فأكثر، تعزّزها الدعاية التي كان يبثّها بلهجة منبرية مؤيّدو الرايخ. وأعيد إلى الذاكرة كثير من التراث كشعر نيبلونغن الملحمي (نُظّم في نحو 1200)، وتماثيل الكنيسة الأسقفية في بناوبورغ، وفارس مدينة بامبيرغ، وأطلال القصور التي كان الملوك والقياصرة ينزلون بها في أثناء أسفارهم. وفي الجملة، فإنّ تلك الفترة شكّلت نهضة التراث في عهد سلالة شتاوفر، وقد ازداد التذكير ببربروسا بصورة خاصة عندما كان نابليون يسيطر على أوروبا، وعندما كانت ألمانيا لم يتمّ بعد تشكيلها. أنشد روكارت مستحضراً شخص القيصر فريدريش الأوّل بربروسا:

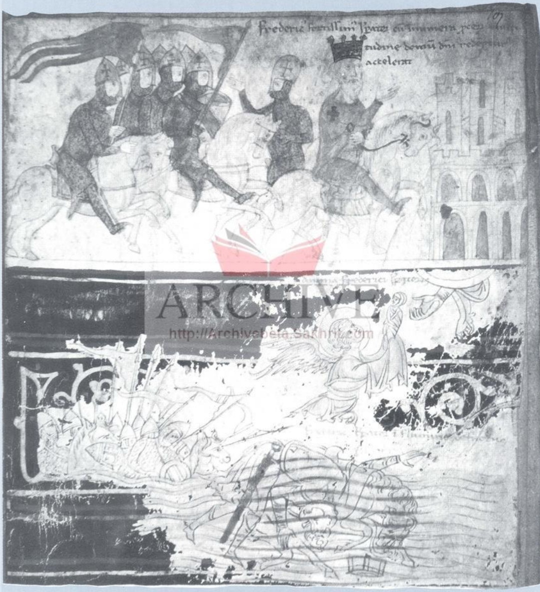
ذهب بالبهاء
وأبّهة المملكة
وسيعود يوماً
وتعود المملكة

فهذه النظرة إلى الوراء كانت مقصودة لإمداد الخلف الألماني بالقوة والثبات اللازمين لمتابعة قضية النهضة الألمانية وتحقيقها، عندما تكون الظروف ملائمة. وتقول أسطورةٌ إنّ القيصر لم يمت، وإنما يمكث في منطقة «كيفهويزر» [1]، وهو سيخرج منها يوما لتوحيد المملكة. فوجد الداعون في هذه الأسطورة القديمة مادّة كافية لتغذية فكرة البعث الوطني.

وهكذا حلّ التاريخ محلّ الفلسفة في التوجيه الفكري، ثم اتّحد التاريخ بالشعر، فمُنحت شخصية بربروسا طابعا أسطوريا جذابا. ولم يكد نابليون يسقط حتّى ربط الشاعر أخيم فون أرنيم شخصية بربروسا بقوى أسطورية. ونقول للتوضيح: إنّ شعر نيبلونغن الملحمي يرفع من صيت سلالة شتاوفر والقياصرة، فسيغفريد، مثلا، وهو أحد أبطال هذا الشعر، قد رافق القيصر كونراد، وهو عمّ بربروسا، في حملته الصليبية. وأخذ ريشارد فاغنر هو الآخر من هذا الشعر الملحمي في إعداد مسرحيته المعروفة، حيث ربط بين قيصر والمسيح، وأبولون وسيغفريد، وشتاوفر ونيبلونغن، والشرق والغرب، والهلينيّين، والرومان والجرمان. فهو كما ترى لم يترك شيئا إلّا أخذ منه.

ومن المفهوم أن يُتّخذ فريدريش الأول موضوعا للإعجاب الوطني. فهو الذي عرف، في حكمه الذي دام 38 عاما، كيف يجمع بين سلطة الملك وبين مراعاة الأمراء، وسلطات المدن الإيطالية، والكنيسة في أمور كثيرة، وكيف

1) قمة كثيرة الغابات بالقرب من مدينة هلّة في جبال الهارتز الأسفل



فريدريش الأول على رأس الفرسان، وهلاكه في آسيا الصغرى. رسم منمنم من نحو 1200

يتوصّل معهم إلى حلول مرضية في العديد من المرات. ثم إنّه بانتصاره في المعركة التي سبقت موته بأسابيع قليلة، قد فتح الطريق إلى القدس، فكان أقرب ما يكون ـ على الظاهر ـ من تأسيس مملكة السلام، كما كان يريد، وكما كانت تريد التكهنّات. فبربروسا كان إذن قائد ملوك النصارى وفرسانهم الموقّر، عالي الشرف، وطيد المنصب، لا يزاحمه فيه أحد مادام هو لا يُؤثر نفسه دون ملوك النصارى بنفوذ أوفر.

لكنّ إنجازات بربروسا لم تثبت للزمان. ولم يستطع خلفاؤه مقاومة السلطة البابوية التي ارتفعت من جديد، ولا مقاومة المدن الإيطالية المناضلة من أجل الحرية، ولا الوعي المتزايد والاعتداد بالذات لدى الأمراء الألمان.

فهل كانت سياسة سلالة شتاوفر وخيمة العاقبة على ألمانيا، لأنّ فريدريش الأوّل انشغل بتثبيت حقوقه القيصرية في إيطاليا وأهمل أن يغزو في الشرق ويستعمر لتحقيق مصالح وطنيّة؟ فشيلر، مثلا، لا يرى فائدة في حملات إيطاليا. والحقيقة أنّ المؤرّخين، وحتّى أميلهم إلى سياسة شتاوفر، لا يرون في هذه السياسة إلاّ وعداً محزنا وجميلا في ذات الوقت، يكون على سلالة هوهنزولرن، من بعد، الوفاء به. فبربروسا لم يفكّر تفكيرا قوميا، إذ لا قوميات وقتئذ. فكّر كما يفكّر القياصرة، وكان متشبّعا بسموّ الإمبراطورية الرومانية التي رفعها إلى مرتبة مقدسة، ووطّد حقوقه الملكية التي كانت في إيطاليا حقوقا قيصرية، ساعيا إلى تدعيم مجد المملكة التي يسوسها تدعيما يناسب تقاليد قدماء الأباطرة المسيحيين الرومان.

رأى فريدريش الأوّل ومستشاروه أن يجعلوا شرعية الملك مستمدة مباشرة من إرادة الله، وهذا ما اصطُلح عليه «بالملكية المقدّسة»، وبهذه الطريقة لايحتاج الملك إلى أن يقرّ البابا شرعية ملكه. وعلى هذا النحو كان فريدريش الأوّل في بداية التطور الذي انتهى إلى مفهوم عصري للمملكة.

ولم يكن بدّ من أن يشتدّ النزاع بصورة خاصة في إيطاليا، حيث تتعارض الحقوق في السلطة المزعومة من الكنيسة وسيادة الحكم في المملكة الناشئة. كان ردّ فعل بربروسا عنيفا للمنافسة التقليدية المريرة على السلطة بين القيصر والبابا. والمعروف أنّ البابا كان قادرا في كلّ حين على استخدام سلاح نافع في شتّى المجالات، وهو الحرم الكنسي، أي الطرد من الكنيسة الذي كان يتهدّد به أصحاب النفوذ الدنيوي. وكم من قيصر ومن مدينة عرفت عضّة السلاح البابوي! وبينما تمكّن فريدريش الأول من الوصول إلى تسوية مع البابا، أخفق حفيده فريدريش الثاني في الوصول إلى أيّ حلّ مع الكنيسة، واستطاع البابا أن يقضي على «أولاد التنّين»، كما كان يسمّي سلالة شتاوفر. لكنّ انتصار البابا لم يكن بطويل عهد، والمنتصر الحقيقي ظل الملكية، أو الفكرة السامية للدولة كما كان بودين يسمي السيادة [2]. لم يعبأ الألمان في بداية الأمر بسقوط دولة شتاوفر، لكنّ بعضاً من أتباع هذه السلالة في صقلية زعموا أنّ فريدريش الثاني لم يمت، وإنّما يقيم في بركان إتنا. ثمّ جعل بعض الناس ينتظرون ظهور «فريدريش الثالث» الذي سوف ينشر السلام في العالم ويصلح الكنيسة. وهكذا نشأت الأسطورة حول فريدريش. ففريدريش الثاني، مع أنّه كان عصري التفكير، انتهازي التصرف، قد اتّحد في الأسطورة بجدّه فريدريش بربروسا الذي لم يعد نادرا أن يراه من يريد رؤيته من السحرة والفلاحين، يجول في جبل «انترسبيرغ» أو بين أطلال قلعة «كيفهويزر».

شهد القرن الخامس عشر أوّل نهضة وطنية اتّخذت بربروسا رمزا لها، وذلك في وقت ازدادت فيه المطالبة بإصلاح المملكة والكنيسة شدّةً. وعلى صعيد الدعاية والتوعية، عمد الوطنيون ذوو النزعة الإنسانية إلى إبراز مجد الأبطال القدامى، الألمان منهم، واليونان، والرومان على حد سواء. ولم ينس المطالبون بإصلاح الكنيسة ما افتكّه البابا من سلطة افتكاكاً لا يليق بتعاليم المسيحية. فرفعوا بربروسا رمزا للحرية الإنجيلية، ثم اختلطت الآراء القومية والدينية لترفعه إلى مرتبة الشاهد الهادي، فأصبح رمزا مبكّرا للكفاح المرير الذي دار من بعد بين الدولة والكنيسة، والذي لم ينته إلى غايته إلاّ في عهد ملوك هوهنزولرن، في زمن تغيرت روما فيه كثيرا، ولم تتغيّر البابوية.

وعاشت أسطورة فريدريش قرنا تلو قرن. ثم كان أن اختار هذا الاسم القيصر فريدريش الثالث في 1880 ليصل نفسه بأبطال الفكرة القومية من ناحية، وليحقّق بمفهومه الليبرالي، الحرية في نطاق الوحدة الألمانية. وهكذا، فإنّ قيام القيصر ذي اللحية البيضاء ـ كما سمى فيليكس دان

2) جان بودين (1530-1596)، عالم قانوني مهمّ

⁽³⁾ فيلهلم الأول ـ في غابات كيفهويزر على مرّ الزمان قد آتى ثماره. فهذا القيصر هو الرمز الذي وحّد الألمان في عظمة المملكة التي شهدت الاصلاحات البروتستانتية. وصارت قلعة هوهنزولرن شاهدا على الرايخ القديم الذي تحقق أخيرا في الرايخ الجديد.

وظهر الرمز الجديد للقيصرية في المباني الفخمة المشادة على النمط العتيق، ثم إنّ هذا الرمز لم يساير التطوّر، فدخل المتاحف وكتب الأدب. ورُبطت سلسلة النسب لأسرة هوهنزولرن بسلسلة نسب شتاوفر.

ثم جاءت هزيمة 1918 لتطرد شبح القيصر الشيخ إلى جبله، يحوم فيه في انتظار زمن «القادة الحقيقيين».

فلما جاء الفهرر، لم يكن كثير الاكتراث بتاريخ سلالة شتاوفر، مع أنّه رأى من عناية القدر أن يكون مسكنه في أوبرزلسبيرغ بالقرب من أونترسبيرغ ⁽⁴⁾ الذي أسكنت فيه الأسطورة القيصر بربروسا.

تندّر الشاعر هاينه في زمانه بالألمان الذين غرقوا في غفوتهم وأحلامهم، فخلقوا لهم إماما منتظرا نائما هو الآخر. في 1945، طارت أحلام اليقظة وزالت الأوهام، فنفى الألمان شبح قيصرهم الشيخ إلى غابات كيفهويزر ليغيب فيها إلى ما شاء الله. فلتكن له طمأنينة الموت! ●



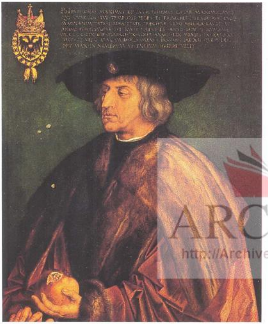
قيصر الغافي في قلعة كيفهويزر الغربانُ من حوله. نقش خشبي من نحو 1880

3) مؤرّخ قومي محافظ، ألّف «كفاح من أجل روما»

4) تزعم أسطورة أخرى أنّ بربروسا يسكن جبل أونترسبيرغ القريب من مدينة برشتسغادن

البريد الألماني وتاريخ أسرة كبيرة

ريغينه غروس



آلبرشت دورر، صورة للقيصر ماكسيميليان من عام 1519

اتّصل البريد الألماني في بداية أمره بزواجين مربحين تزوّجهما القيصر الألماني ماكسيميليان الأوّل (1459-1519). تزوّج مرّةً أولى - قبل أن يرتقي العرش - مارية الوارثة الوحيدة لكارل الشجاع، حاكم بورغونده، فتسنّى لماكسيميليان أن يوحّد بين ممتلكات بورغونده الكثيرة.

من الراجح أنّ ماكسيميليان، وهو ملك شاب محب للتجديد، أعجبته منشآت بورغونده البريدية التي كان كارل الشجاع نظّم إدارتها تنظيما مركزيا على الطريقة الفرنسية. فكانت تلك المنشآت مثالا اقتدى به ماكسيميليان عندما أدخل إصلاحات على نظام المواصلات والنقل تمهيداً لإدارة ممتلكاته المترامية الأطراف إدارةً محكمة. وفي أغلب الظنّ أنّه قرّر منذ ارتقائه العرش عام 1490 في مدينة إنسبروك إنشاء خطوط للبريد تربط إنسبروك، مقرَّ حكومة الرايخ والإدارة النمساوية، بممتلكات هابسبورغ النائية وبالأماكن الكثيرة التي كان يقيم بها ماكسيميليان ويختلف إليها.

وكان لماكسيميليان في مشروعه هذا ثلاثة مساعدين:

الصور الصغرى على الصفحتين 18 و 19: أسلاف ساعي البريد؛ كانوا يعملون لدى الأديرة، والبلديات، والقصور







فرانس فون تاكسيس (1459-1517) الذي يعدّ اليوم مؤسّس البريد في أوروبا الوسطى، وأخوه جانيتو وابن اخته يوهنس بابتستا، ثلاثتهم خبراء ممتازون اجتهدوا في حلّ المشاكل التنظيمية العويصة. وثلاثتهم من أسرة تاكسيس التي أصلها من مدينة برغامو، وقد عملت من قبل في بريد البابا وبريد البندقية فتجمّعت لها في هذا المجال خبرات واسعة.

وما من شكّ في أنّ أسرة تاكسيس لم تبتدع البريد، كما



فرانس فون تاكسيس مؤسّس مصلحة البريد

يُزعم أحياناً، فالبريد قد عرفته الشعوب المتحضّرة من قديم، وإنّما يقصد من يزعم ذلك إلى أنّ أسرة تاكسيس كانت أوّل من أدخل التجديدات الفنية والتنظيمية على ماكان موجودا من المنشآت البريدية البسيطة كمراكز التناوب ومحطّات تبديل الخيل الخ . . ، فحوّلتها إلى مؤسّسة عالية الكفاية ممتدّة النشاط. واستندت هذه المؤسّسة على مجموعة من العقود والمواثيق المعقّدة لكي تربط بين الأجزاء الكثيرة التي كانت تُكَوِّن «الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدّسة»، كما كانت تسمّى المناطق الألمانية وقتذاك، ولكي تضمن حركة البريد بينها للرسميين.

ويرجع تاريخ أوّل خطّ بريد عبر ألمانيا إلى عام 1490، ربط إنسبروك بمدينة ميخلان في شمال بروكسل. ولم يكن البريد على هذا الخطّ منتظما، وكان على كلّ حال مخصّصا للأغراض الإدارية. وفي تلك المرحلة، استخدم آل تاكسيس منشآت السُعاة القديمة، ولا سيما المنشآت التي كانت في مدن الرايخ، وكذلك ما يسمّى بمراكز الجزّارين، إذ كان الجزّارون يحملون معهم البريد إلى المناطق التي ينتقلون إليها لابتياع الماشية.

ونظّم آل تاكسيس عمليات التناوب تنظيما جديدا، فجعلوها على مراحل ثلاثين كيلومترا للفارس والدابة معاً. وكان سُعاة البريد يعرفون طريقهم معرفة جيّدة، فكانوا يركبونها نهارا وليلا. هكذا صارت المسافة من إنسبروك إلى ميخلان تقطع صيفاً في خمسة أيّام بلياليها وشتاءً في ستّة أيّام بلياليها. وكان متوسّط السرعة التي ينقل السعاة بها الرسائل نحو ثمانية كيلومترات في الساعة في







بداية إدارة آل تاكسيس للبريد، ثمّ إنّهم توصّلوا بتقوية النظام وتشديد المراقبة مع مرّ السنين إلى سرعة متوسّطة تقارب ثلاثة عشر كيلومترا في الساعة، فكانت تلك أعلى سرعة لنقل الرسائل وقتئذ.

أمّا نقل الطرود والنقود والركّاب، فكان بعربات البريد التي تراوحت سرعتها على حسب طبيعة الأرض بين خمسة كيلومترات وثمانية كيلومترات في الساعة.

وارتقت مؤسسة البريد درجةً بالزواج الثاني لماكسيميليان. توفّيت مارية عام 1482 فاقترن ببيانكة مارية سفورزا من الأسرة الحاكمة لدوقية ميلانو، فتحسّنت علاقاته بهذه الدوقية كثيرا وسُمح له بإنشاء خطّ بريدي يربط إنسبروك بميلانو.

ثمّ بدأ ارتقاء مؤسّسة آل تاكسيس البريدية إلى مؤسسة دولية ذات شأن عندما عَيَّنَ فيليب الأوّل، ملك إسبانيا، فرانس فون تاكسيس مشرفا على بريده. ثمّ كُلِّف فرانس عام 1507 بإنشاء خطوط للبريد بين إسبانيا والقيصرية الألمانية. ولم يمض وقت طويل حتى صار آل تاكسيس مسيطرين سيطرة كاملة على اثني عشر مراكزاً من أهمّ مراكز البريد وأكثرها درّاً بالأرباح، كانت لهم في هولندا وإسبانيا وإيطاليا والقيصرية الألمانية.

وقد كثر أن تخلّف ماكسيميليان والقياصرة من بعده عن تسديد استحقاقات البريد لما كان في خزينة الدولة من عجز مزمن، فعمد آل تاكسيس في نحو 1506 إلى نقل الرسائل الخاصّة. وكأنّ القيصر أجاز لهم ذلك، فلم يعترض لهم، فكان لهم في البريد الخاص دخل إضافي ومصدر مال وفير.

وهكذا نمت مؤسسة آل تاكسيس وازدهرت وصارت تدرّ بأرباح هائلة على الدولة. وصدر قرار في 1597، يجعل إنشاء مراكز البريد في كلّ الرايخ من حقوق القيصر، فكان القرار تعزيزا لمركز المشرف العام على البريد الذي يُعيَّنُ، كسابق العادة، من آل تاكسيس.

لكنّ حرب الأعوام الثلاثين تحلّ، فيتوقّف الازدهار، وتتقهقر حال البريد الألماني وتتحوّل من سيّئ إلى أسوأ. وقد حملت هذه الحرب الدينية (1618-1648) الشرّ والوبال إلى ألمانيا، فلم تبق على شيء، ولا على البريد الألماني. وتمكّنت منشآت بريدية أجنبية ـ سويدية خاصّةً ـ من دخول السوق الألمانية وإنشاء قواعد فيها.

ولم تنته معضلات البريد الألماني بحلول السلم. فبعد معاهدة فستفاليا 1648 صار الأمراء الألمان يعارضون قيام بريد قيصري موحد، ونشأ في ذلك ما سُمّي «النزاع البريدي» الذي لم يُحَلّ حتّى العام 1806 وهو تاريخ انحلال «الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدّسة».

ثم كانت الأعوام من 1806 إلى تاريخ مؤتمر فينّا 1815، فأعيد تشكيل أوروبا، وظهر الاتّحاد الألماني الذي كان يتألّف من دول كثيرة مستقلّة، لها مؤسّساتها البريدية الخاصة. فبلغ عدد هذه المؤسسات سبع عشرة في وقت من الأوقات. ولم ينقطع نشاط آل تاكسيس الذين صار اسمهم منذ 1650 «تورن وتاكسيس». بل إنّهم استغلّوا الوضع أفضل استغلال، فكانوا يديرون مؤسسة بريدية خاصّة تخدم الحكام المختلفين إلى أن أخذتها منهم دولة بروسيا في عام 1867 مقابل ثلاثة ملايين طالر (وهي عملة فضية ألمانية).

ونشير هنا إلى حدث دولي هامّ، تأسيس الاتّحاد البريدي العام في 1874 الذي سُمّي من بعدُ الاتّحادَ البريدي الدولي. أمّا في ألمانيا، فلم تظهر إدارة بريدية موحّدة إلاّ بعد الحرب العالمية الأولى عندما نزلت بافاريا وفورتمبيرغ للرايخ عن حقوقهما البريدية عام 1920، وقد سبقتهما بادن، إلى ذلك في 1871. وبعد الحرب العالمية الثانية في 1945، قُسّمت ألمانيا إلى مناطق احتلال أربع، فزالت إدارة البريد المركزية، ثم أسّست مصلحة البريد الاتّحادية في 1950، وصارت مؤسسة من أكبر المؤسّسات في جمهورية ألمانيا الاتّحادية، ذلك أنّ الاقتصاد والمجتمع شهدا في العقود الأخيرة تطوّرا هائلا، ارتقى بالاتّصالات وتبادل المعلومات إلى مجال التكنولوجيا العليا. ●



نوع من العلامات الخشبية كانت على طريق عربات البريد في بروسيا في بداية القرن الثامن عشر

ريغينه غروس

طابع البريد - فكرة في غاية الذكاء

الذكرى المائة والخمسون لظهور طابع البريد



«الواحد الأسود» (في أعلى) هو أوّل طابع بريد ألماني. صدر ببافاريا في أوّل نوفمبر 1849

من لطيف الصدف أن وافقت الذكرى المائة والخمسون لظهور طابع البريد الذكرى الخمسمائة لتأسيس مصلحة البريد. والطابع البريدي، تلك الصورة الصغيرة من الورق المصمّغة الظهر، ظهر لأوّل مرّة في السادس من مايو 1840 في بريطانيا، ابتكره رولاند هيل. وكان هذا الرجل يعمل في مجموعة مكلفة من صاحبة الجلالة الملكة فكتوريا بإصلاح شؤون البريد، فخطرت له هذه الفكرة البكر البعيدة الذكاء. وكانت مصلحة البريد البريطانية في القرن الماضي تعاني عدّة إشكالات: فالرسوم كانت مرتفعة بصورة مفرطة، وطريقة حساب هذه الرسوم معقّدة، وكان أعضاء البرلمان معفون من رسوم البريد، فغاظ امتيازهم هذا غيرهم من الناس. وفي الجملة، فإنّ مصلحة البريد البريطانية ما كانت لترقى إلى مؤسّسة عالية الكفاية، خَدومة وجذابة للجمهور، بسبب التفرقة في معاملتها الزبائنَ، وبطء أعمالها وإجراءاتها، وارتفاع رسومها.

وكغيره من رعايا صاحبة الجلالة، وجد رولاند هيل على قصور البريد موجدة انتهت به أخيرا إلى إصدار منشور ينادي فيه بضرورة إصلاحات بريدية. فلما اشتدّ الاستياء العام، وافقت إدارة البريد على الرسم الموحّد للرسائل القياسية، وهو أهم اقتراح تقدم به هيل في قائمة اقتراحاته الإصلاحية. والرسالة القياسية ها هنا هي الرسالة العادية التي لها مواصفات معلومة. أمّا هذا الرسم الموحّد فكان هيل في بداية الأمر يراه عمليّا، في أن يختم على ظرف الرسالة ختما يمثل المبلغ المالي المحدد. لكن مصلحة البريد آثرت حلا آخر، لسنا موقنين بأن يكون هيل صاحبه، آثرت أن تجعل على الظرف صورة صغيرة لاصقة، فكان ذلك مولد الطابع البريدي الذي راج من بعد رواجاً هائلا.

أوّل طابع بريدي في التاريخ هو «البنس الأسود» - قيمته بنس واحد - وهو أسود الأرضية، عليه صورة بيضاء للملكة فكتوريا من أيّام شبابها. وعُمد منذ هذا الطابع الأوّل، إلى العلامة المائية لمنع التزييف. وقد بلغت طبعة «البنس الأسود» رقما هائلا، إذ طبع منه 68 مليوناً.

وكان أوّل طابع بريدي ألماني «الواحد الأسود» طابعا بسيط الشكل، هو الآخر، مطبوعا بالأسود والأبيض. صدر هذا الطابع في أول نوفمبر 1849 في بافاريا بقيمة «كرويتسر» واحد، وهي وحدة نقدية؛ وطبع منه 832 ألف نسخة. وهو اليوم من الطوابع النادرة في مجموعات الهواة الثمينة. وبعد سنة، حذت كلّ من بروسيا وسكسونيا والمقاطعات الألمانية الأخرى حذو بافاريا، فأصدرت طوابعها البريدية الخاصة إلى أن كان تأسيس الرايخ الألماني في 1871، فلم



أوّل طابع بريدي صدر في العالم: «البنس الأسود» الحامل لصورة الملكة فكتوريا

تحتفظ بعدئذ إلّا بافاريا وفورتمبيرغ بسيادتهما البريدية واستمرتا في إصدار طوابعهما الخاصّة .

كانت وظيفة الطابع البريدي قبل مائة وخمسين عاما لا تتعدّى كونه عملة يُسدّد بها نفقات نقل الرسالة . لكنّ أصحاب الفطنة أدركوا سريعا أنّ لهذه الطوابع المنتشرة بالمليارات في الأرجاء فائدة عظمى ، فهي صالحة كل الصلوح للتعريف بالبلاد ، فطابع البريد ينقل إلى كلّ مكان صورا ورموزا من التاريخ والحضارة والسياسة والرياضة والتكنولوجيا ، وكلّ هذا كفيل برفع ذكر الأمّة ونشر صيتها .

ومن جهة أخرى ، نشأت هواية جمع الطوابع سريعا وانتشرت في العالم ، فصار الطابع البريدي تحفة فنية تتعدّى قيمتها كثيرا في أغلب الحالات الثمن المسجّل على الطابع . أما إذا كان الطابع نادرا ، فقيمته ترقى أحيانا إلى الملايين . ويأتي على رأس «هواة الجمع» في جمهورية ألمانيا الاتّحادية مؤسّسة البريد الاتحادية التي تملك أوسع مجموعة للطوابع البريدية الألمانية وأكملها . فقد بدأت هذه المؤسّسة تجمع منذ 1872 جميع الطوابع الصادرة في ألمانيا وكذلك الطوابع الصادرة في العالم ، تطلبها عن طريق جمعية البريد العالمية . وقد أنشأت مؤسّسة البريد الاتحادية قسما للجامعين ، له مراكز ثلاثة : في برلين وفرانكفورت وفايدن . فمن تلك المراكز ترسل مؤسّسة البريد إلى نحو 830 ألفاً من المشاركين في ألمانيا والخارج أربع مرّات في السنة عادة طوابع بريدية جديدة الإصدار غير مختومة أو طوابع بريدية مختوماً عليها . كما يمكن لغير المشاركين أن يطلبوا من مؤسّسة البريد ما يرغبون فيه من الطوابع .

أمّا أغلى طابع بريدي ألماني حاليا فهو الطابع المسمى «خطأ بادن المطبعي» . وهو طابع بريدي صدر في عام 1851 ، بقيمة تسعة كرويتسر وقتذاك ، ولم يبق منه الآن إلّا ثلاث نسخ . وقد بيعت إحدى هذه النسخ بمليونين وسبعمائة ألف مارك قبل خمس سنوات في أحد المزادات العلنية التي انعقدت في الولايات المتّحدة . وترجع هذه القيمة العظمى إلى أنّ أحد الطباعين خطئ ، فلم يستعمل للطباعة ورقاً أحمر ، كما كان مقررا ، وإنّما ورقاً أخضر . فالخطأ ، كما ترى ، يكون أحيانا مصدر الشهرة .

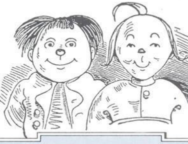




طوابع من أشهر الطوابع البريدية ، وإن لم تكن من أغلاها . من أعلى إلى أسفل :
- «الموريسيوس» الأزرق والأحمر
- «خطأ بادن المطبعي» على ظرف ؛ طابعٌ ليس للبيع ، تُقدّر قيمته بملايين الماركات
- السداسي المختوم عليه الوحيد لطابع «الواحد الأسود» على رسالة إلى مدينة أيشتات

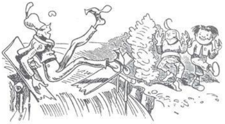


طوابع خاصة تصدرها مصلحة
البريد الاتحادية



قصّة الأطفال «ماكس وموريتس» ونجاحها الباهر

ريغينه غروس



دفع فيلهلم بوش في فبراير 1865 مخطوطة «ماكس وموريتس» إلى إحدى دور النشر بمدينة ميونيخ، وكان وقتها أبعد ما يكون عن تصوّر قصّته تلك تصبح أكثر قصص الأطفال انتشارا في البلاد الناطقة بالألمانية. وعندما توفّي فيلهلم بوش في عام 1908، كان عدد النسخ المباعة من «ماكس وموريتس» مناهزا لنصف المليون، وكانت القصة مترجمة إلى عشر لغات. أمّا الموضوع، فيدور حول شيطنة الأطفال وعفرتتهم، وقد استخدم بوش الرسوم الهزلية فكان رائدا. واليوم، 125 عاما بعد ظهور الطبعة الأولى، لم تفقد هذه القصّة من رواجها بل ازدادت انتشاراً بصورة مذهلة، فقد نُقلت إلى 185 من اللغات واللهجات، منها لغات شعوب نائية كالبنغالية واليابانية، لكنّها لم تنقل حتّى الآن - مع الأسف - إلى العربية. ويُحصى الآن مجموع النسخ لكلّ طبعات هذه القصّة بالملايين.

فما سرّ النجاح المتّصل الذي يشهده كتاب الأطفال هذا؟ إنّه عائد إلى أسباب: منها تفوّق فيلهلم بوش في الرسم، فقد خطّ الصور ببراعة يندر مثلها في كتب الأطفال، فكأنّ نفسه نزعت به إلى الرسم نزاعا، فجعلت الخطوط تنساب من ريشته في سلاسة. كذلك النظم، جاء سلسا متينا بليغا. لكنّ أهمّ أسباب النجاح، بدون شك، هو الوظيفة التي باتت لهذا الكتاب والتي ستتّضح بعد عرض سريع لكتب الأطفال التي صدرت قبل «ماكس وموريتس»:

في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، ابتُدعت صورة نموذجية للطفل الألماني، كانت - على طريقة عهد التنوير - غاية في المثالية. وسيطرت هذه الصورة على كتب الأطفال وقتذاك. والحقيقة أنّها لم تكن كتبا كما نعرفها الآن وإنّما كانت مجموعات من الصور تتخللها حكايات اختيرت لعبرها، ولما ترشد إليه من حسن الأخلاق والطاعة وتدعو إليه من المرح والابتهاج. وكانت العناوين، مثل «الطفل المؤدّب»، لا تترك شكّا في صنف القراء الذين أُعدّت لهم مجموعات الصور والحكايات تلك. كان أسلوبها التربوي يعتمد على المثال والقدوة الحسنة، وكانت تُقرّب عالَما مثاليا، عالم الأطفال المهذّبين. لكنّ ذلك العالم المثالي بعيد عند الحقيقة، وما يحصل عند قراءة تلك الكتب إلاّ أن يرى الطفل في كلّ صفحة من صفحاتها صورة مثالية نقيضاً للطفل الحقيقي، فيشعر بالنقص، إن لم يكن بالذنب.

وكذلك استمرّت كتب الأطفال تحكي المثالية وتصف عالم الأطفال المؤدّبين إلى أن ظهرت فجأة قصّة «شتروفل بيتر»





في عام 1845 ، عشرين عاما قبل ظهور «ماكس وموريتس» ، فغيّرت المفاهيم السائدة أيّما تغيير. ذلك أنّ هاينريش هوفمان ، وهو طبيب من فرانكفورت ، سئم كتب الأطفال المتداولة وقتذاك وألّف كتاب «شتروفل بيتر» الذي «ينظر فيه إلى الطفل نظرة جديدة ويتّبع منهاجا تربويا جديداً» . ونمط البطل الذي ابتكره هوفمان طفلٌ أبعد مايكون عن المثالية ، ليس هو بالمؤدّب قسرا ولا بالمطيع دائما. وكان لأبطال هذه القصّة فور ظهورها تأثير عظيم ، ليس خاليا من التوتّر، لكنّه ليس خاليا أيضا من الشغف والعطف. فهم أبطال بالمعنى السلبي ، إن صحّ التعبير، يشاغبون ، فتكون العقوبة جزاءً لمشاغبتهم . ولعلّ أبرز ميزة فيهم عنادهم وانسجامهم مع أنفسهم . ويرى الطفل القارئ في أبطال «شتروفل بيتر» صورة من نفسه وفي أعمالهم شيئا من أعماله ، ويرى أيضا أنّ العقوبة تلحق بهم كّلما عملوا عملا سيئا وتصرفوا تصرفا مهينا .

انهار إذاً ، بعد ظهور «شتروفل بيتر» ، الأسلوب التربوي القائم على المثال والقدوة «الحسنة» ، وحلّ محلّه أسلوب جديد يعرض لمشاكل الطفل ويعالج مخاوفه ويقيس مدى استعداده لتحمّل مسؤولية أعماله . وإنّما تطرقّنا بشيء من التفصيل إلى كتاب «شتروفل بيتر» لأنّه مهّد الطريق لكتاب «ماكس وموريتس» بعد أن زعزع بنيان الأسلوب التربوي التقليدي .

غير أنّ النظرة السطحية إلى كتاب «شتروفل بيتر» توهم بأنّه احتفظ بشيء من المفهوم التربوي القديم ، فالعقاب حاصل على كلّ حال ، يأتي جزاءً لسوء العمل . أمّا كتاب «ماكس وموريتس» فلا يكاد يكون فيه عقاب ، والصبيّان البطلان ماكس وموريتس يمكران بالناس في مرح ، ويدبّران المقالب دون أن يؤخذا بسوء عملهما . أمّا الضحايا ، فأمرهم لله! صحيح أنّ القصّة تنتهي بنهاية الصبيين ، يهلكان مطحونين في طاحونة إحدى ضحاياهم ، ويُقدّمان علفاً للبط . لكنّ العبرة ليست في هذا ، فكلٌ هالك لا محالة . أما المكسب ، فأن تكون المتعة قبل الهلاك .

وبطبيعة الحال ، لم يجهر فيلهلم بوش بالمغزى الحقيقي لكتابه ، لكنّه حرص على أن يقدّمه في الإطار التربوي التقليدي ، فكتب في المقدّمة والخاتمة أن اعتبروا أيّها الأطفال بهذين «الصبيّين الشرّيرين» ، وانظروا كيف يجزيان بشرّ عملهما . ولو لم يكن فعل ذلك لما سوّقت قصّته ، ولما صادفت ذلك الاستحسان النابع من اغتباط الأطفال بالقراءة ، لا من القيمة الأخلاقية للقصّة . وليس من شكّ في أنّ رواج «ماكس وموريتس» رواجا عالميا متّصلا عائد إلى أنّ هذه القصّة قد كشفت عن طبيعة الطفل ، بل عن الطبيعة البشرية . والغريب أنّ فيلهلم بوش يستطيع أن ينشر قصّة كهذه في ألمانيا التي سادها في القرن التاسع عشر روح الانضباط البروسي والطاعة المطلقة . ولم يكن بوش لينجح لولا اللباقة وحسن التدبير. فهو لم يتعرّض للكبار في ظاهر الأمر ، وإنّما أخذ يصف شقاوة الصغار ، وهو مدرك كلّ الإدراك أنّه يشوّه صورة العالم . فليس الأطفال وحدهم الشريرين ، وفيلهلم بوش يقول إنّ الشرّ هو المبدأ الذي يحرّك جميع الناس ؛ فهو يقصد الكبار إذن . وإذا كان الصغار أشرارا بطبعهم فهم صائرون إلى البلوغ وشرّهم معهم .

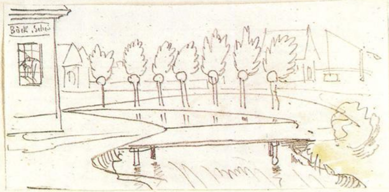


«شتروفل بيتر» و«ماكس وموريتس» كتابان مصوّران للأطفال يُسوَّقان في كلّ العالم منذ نحو قرن ونصف قرن ، وهما بلا شكّ من كتب الأطفال ذات المستوى العالمي .

وبمناسبة مرور 125 عاما بعد ظهور الطبعة الأولى لكتاب «ماكس وموريتس» ، نظّم متحف فيلهلم بوش للكاريكاتور والرسم النقدي بمدينة هانوفر معرضا جمع فيه كلّ ما اتّصل بإعداد مخطوطة الكتاب ، وطباعته وترجماته . كما عرض للمرّة الأولى للأعمال المسرحية والرقصات وأفلام التلفزيون والسينما التي اقتبس جميعها من «ماكس وموريتس» ، وكيف استغلّت الدعاية بطلي القصّة ، فأساءت الاستغلال أحيانا . هذا ، وصدر بهذه المناسبة عن دار النشر «غيرد هاتيه فرلاغ» بمدينة شتوتغارت كتاب مصوّر في 168 صفحة بعنوان 125 سنة منذ ظهور «ماكس وموريتس» .

Nämlich vor des Meisters Hause
Floss ein Wasser mit Gebrause

28



Über's Wasser führt ein Steg
Und darüber geht der Weg. ~

29



Max und Moritz, gar nicht träge,
Sägen heimlich mit der Säge,
Ritzeratze! voller Tücke,
In die Brücke eine Lücke. ~

صفحة من مخطوطة «ماكس وموريتس» بريشة مؤلفه فيلهلم بوش. وقد نُقشت الصور في الخشب إعداداً للطباعة. انظر أيضاً الصور على صفحتي 24 و 25



«ماكس وموريتس» في دعاية لسراويل الجينز من عام 1979





دُميتان من عام 1960 في شكل ماكس وموريتس

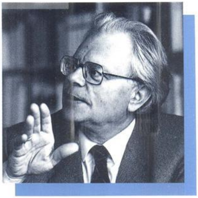
بطاقتا تهنئة بصورة ماكس وموريتس؛ العليا بدون تاريخ والسفلى من عام 1925

هذا حوار أجراه غيرهارت شبورل من صحيفة «دي تسايت» مع هيرمان غلازر حول الفترة المفزعة التي تلت الحرب، ومعالجة الفقر الثقافي بالواجهات التربوية الخاوية.

الثقافة هي كلّ شيء لا يكون

الصحيفة: ها قد عَمِلْتَ أكثر من ربع قرن في حقل السياسة الثقافية، فهل تعريف الثقافة عندك ما زال سهلا؟

غلازر: ماكنت كثير الاعتداد بالثقافة وسلطانها عندما بدأت أعمل عام 1964. ومفهومي للثقافة آنذاك ومفهومي لها اليوم متّصلان أشدّ الاتّصال بما خبرته في 1945 وبعد 1945. أمّا الحدث التربوي السلبي الذي عشته، فكان بروغروم الرايخ في نوفمبر 1938. وقد ترك هذا الحدث في فهمي الأشياء أثراً لن يمحى ما دمت حيّاً. وعندي أنّ الثقافة الديمقراطية هي تصوّر شامل معاكس لما سمّوه الفكر الألماني، والتأدّب الألماني، والروح الألماني. والثقافة الديمقراطية هي أيضاً الأمل القائم أمام أنقاض تلك المفاهيم. والثقافة هي نقيض الواقع دائما، وإن لم يكن الواقع دائماً على قبح ماكان عليه في العهد النازي.



الصحيفة: تحوّلت جمهورية ألمانيا الاتّحادية شيئاً فشيئاً في الستينات إلى مجتمع منفتح. فما الذي قصدت إليه عندما تجرّدت للعمل الثقافي؟

غلازر: لم يكن كلّ شيء يدور حول ماضي ألمانيا القاتم. فقد ظهر النقد في موضوع الثقافة المؤيّدة الخاضعة، وذلك في وقت مبكّر، سبق كثيرا حركة 1968 الاحتجاجية. أمّا أنا فلم أنتمِ شخصيا إلى تلك الحركة، وإنّما كنت من المراقبين لها، المتعاطفين معها، ولم أكن من المتّصلين بها اتّصال بعض الأساتذة الجامعيين.

لقد كنّا نعالج موضوع «المعجزة الاقتصادية»، والفترة المتأخّرة من حكم أدناور، ومسألة النظر إلى التطور من جانب واحد. هذا مع أنّنا كنّا ـ نحن أيضا ـ نأمل في التقدّم المادي، ونسعى إلى الخروج من ذلك الوضع الاجتماعي الرتيب بأنماطه الموحّدة، طامحين إلى حياة أفضل، وأجمل، إلى حياة «أميركية»...

الصحيفة: ماتعني أميركا عندك؟

غلازر: كانت أميركا رمز التقدّم الفكري والحضاري مقابل ثقافة خاضعة متحجّرة لا تعرف النقد. وكنّا وقتذاك مخطئين في تقويمنا لأميركا، وعلى كلّ حال كنّا نراها صورة عكسية لألمانيا القروية.

الصحيفة: ماهي المقاييس التي اتّخذتموها في الثقافة؟

غلازر: كانت المدن الموحشة هي الواقع الملموس في ألمانيا خلال الستينات. وفكرتنا الأساسية تمثّلت وقتذاك في خلق أعمال ثقافية معاكسة لتلك الحالة الموحشة أينما استطعنا.

الصحيفة: يبدو لي، عندما تتكلّم في الثقافة، كأنّ الأمر أمر طبيعة وخلق.

غلازر: لقد اهتديت دائما بأعمدة في الفكر ثلاثة: اهتديت بشيلّر في الحقل التربوي والمثالي. واهتديت بماركس الذي راعني منه اهتمامه بالواقع مقابل الفكرة، ثم

اهتديت بفرويد الذي أعجبني منه طريقته في تحليل العالم الداخلي للإنسان والمجتمع.

الصحيفة: لا يخفى أنّك معلم ابن معلم. وقد كنت تُدرّس قبل تعاطيك السياسة الثقافية، فكيف ترى من منظار المربي مستوى الثقافة في جمهورية ألمانيا الاتّحادية؟

غلازر: إنّني حاليا إلى التشاؤم أميل. ففي السنين الأخيرة تفاقمت الفضيحة في جمهورية ألمانيا الاتّحادية. إنّها فضيحة ثلاثية الأطوار.

فهي أولاً فضيحة بنيوية تتمثّل في العجز عن إيجاد التصّورات المثالية الحقيقية في ذات الوقت التي تؤدّي إلى المجتمع الأفضل. وهي ثانيا فضيحة البطالة. فلو طُبّقت فكرة اقتصاد السوق ذات الطابع الاجتماعي تطبيقا جديا لاضمحلت البطالة. لكنّ الطابع الاجتماعي أهمل، وأنا أرى الآن لودفيغ إرهارد من الثوريين إذا قابلته بصنف السياسيين الحاكمين حاليا. أمّا الفضيحة الثالثة فمتّصلة بالتطهير الثقافي. ولا أعني هنا شيئاً يشبه ما دار من خلاف بين المؤرّخين حول التاريخ الألماني، وإنّما أعني ذلك الموقف المتّبع في السياسة الذي يرفض بوقاحة كلّ ماهو قدوة ومثال. وبحقّ يتحدّث أودوماروارد عن «صلاحية تعادل اللاصلاحية». فتكون النتيجة محبطة، ووجهة النظر هي: هذا موقفي، لكني أستطيع تغييره.

نعم، إنّ الفضيحة الثلاثية هذه لنقيض ما كنّا نرمي إليه متفائلين من توعية وتنوير.

الصحيفة: وما نصيب الجمهورية الألمانية الديمقراطية من الثقافة؟

غلازر: من المحتمل أن يفقد الألمان الغربيون بعضاً من سطحيتهم وشيئا من تذمّرهم وتبرّمهم عندما يواجهون ثقافة الجمهورية الألمانية الديمقراطية. عندئذ قد يعود المهمّ مهمّا. لكن من جهة أخرى، تكشف ثقافة الجمهورية الألمانية الديمقراطية عن فساد عظيم فيها ورشوة. وتظهر تطويع الفكر الألماني. فمن شنتلر إلى هيرمان كانت يمتدّ طابور ضخم من الانتهازيين من شتى الأصناف.

الصحيفة: ما رأيك في قول القائل: إنّ الجمهورية الألمانية الديمقراطية تساهم في الوحدة بخُلقها وجمهورية ألمانيا الاتّحادية بمالها؟

غلازر: مساهمة الجمهورية الألمانية الديمقراطية لن تكون بخلقها وحده، وإنما أيضاً بما في ذلك الخلق من استعداد للفساد والرشوة. ولكنّني لا أريد رأيي هذا مطلقا، فإنني ـ على عادتي ـ أميل إلى التحفظ والاقتصاد. وما أرى رودولف أوغشتاين إلاّ مصيبا عندما ذكر أنّ المواطن في الجمهورية الألمانية الديمقراطية الذي انتخب مؤخرا للمرّة الثانية في حياته انتخابا حرّاً يكون قد ناهز الثمانين، وهذا يُظهر الحظ العظيم من الحرية الذي كان لنا، نحن في جمهورية ألمانيا الاتّحادية. فنحن خليقون بلزوم التواضع إزاء الجمهورية الألمانية الديمقراطية.

الصحيفة: كتبت في عام 1986 : «كيف يمكن لنا أن نثق في متانة دولة ليست هي في آخر الأمر ـ مهما قلّبت المسألة ـ

هيرمان غلازر

شاءت الصدفة أن يتقاعد في فترة وجيزة رجلان من أعلام السياسة الثقافية في ألمانيا، هما: هيلمار هوفمان من فرانكفورت وهيرمان غلازر من نورنبيرغ. والرجلان يتشابهان في أنّهما عاشا في شيء من الانفراد، لم يرغبا فيه، ولكن لم يرغبا عنه كلّ الرغبة.

وظلّ كلاهما ذا تأثير في محيط عمله وخارجه، لأنّهما ذوا همّة، يرجعان الثقافة إلى جذور أخلاقية، وسياسية، وتربوية، ويطمحان إلى أن يكونا أطرافا في النزاعات الثقافية الكبرى. وكان المحيط الذي نشط فيه غلازر أضيق من الذي نشط فيه هوفمان. فهذا عَمِلَ في فرانكفورت، وذلك في نورنبيرغ. ونورنبيرغ هي قاعدة منطقة فرانكن، وهي مدينة داخلها الطابع القروي، والتصق بها في عهد النازية صيت فظيع. ولد غلازر في عام 1928 في هذه المدينة، وظلّ موزّع النفس إزاءها، مرتابا في شأنها كلّ الارتياب، وهو مع ذلك يرى فيها إمكانات لا يستهان بها. وفي منتصف الستينات أسّس غلازر «حوار نورنبيرغ»، فكانت النتيجة أن أصبح منذئذ النقاش حول الماضي الألماني وجرائم النازية أكثر صراحة.

وما كان غلازر معزولا أبدا، وقد كتب عدة كتب، تناول فيها أحدث الموضوعات؛ فكتب مثلاً عن مجتمع العمل، والثقافة البديلة، وجيل ما بعد الحرب، وعن سيغموند فرويد، عالم التحليل النفسي، إلى غيرها من المواضيع.

ويذهب به التواضع إلى أن يصف نفسه بالمنتقي الذي لا يبتكر، بل يأخذ عن غيره، وينتقي الآراء المختلفة ويلخّصها، ويبحث عن الآثار في المسالك المتباينة. أمّا أهمّ مؤلَّف له، فهو كتاب عن تاريخ الحضارة في جمهورية ألمانيا الاتحادية، جاء في ثلاثة مجلدات.

هذا، وقد عُيّن غلازر بعد تقاعده أستاذاً بالمكافأة في برلين.

إلّا نتاجا اصطناعيا لنظام احتلال مفروض؟» وأنت تلتقي هنا تقريبا بكارل هاينتس بورر الذي يرى أنّ الجرح الدامي في تاريخ ألمانيا المعاصر لا تمثّله معسكرات الاعتقال النازية وإنّما تجزئة ألمانيا. فهل أنت في مجال الثقافة الألمانية قومي النزعة؟

غلازر: كنت أقول دائما بأنّ فرصة كبرى تكمن في جمهورية ألمانيا الاتّحادية بسبب أنّ هذه الدولة كيان مصنوع، فهي أقدر على اجتناب الأخطاء التي تصحب تطوّر المجتمعات. وكنت بهذا الرأي أواجه من ينقد هذه الدولة من حيث كونها دولة اصطناعية. يبقى أنّه من الصعب على المرء فعلاً أن يتضامن نفسيا مع شيء اصطناعي ويتّحد معه. وقد فكّرنا، نحن العاملين في السياسة الثقافية، في طرائق الوصول إلى ذلك التضامن وتلك الوحدة. ولكن إذا سألت هل نجحنا في ذلك، فلا يسعني إلّا أن أجيب: لم ننجح فيه كلّ النجاح.

الصحيفة: ألهذا يرجع صمت اليسار الألماني منذ التاسع من نوفمبر؟

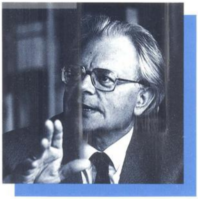
غلازر: إنّ بعض الفئات اليسارية تتّسم في كثير من الأحيان بالعجز والضعف، لأنّها لا تقترن الإنسانية بالحرية بوضوح كاف، إذا عالجت تلك الفئات أوضاع الشرقية. وميل هذه الفئات إلى بعض النظم جعلها تعمى عن الاضطهاد أو تنظر إليه بعين واحدة. إلى هذا، فإنّ العداء للشيوعية السائد قد خلق في اليسار عناداً، فهو لا يريد أن يكون مع اليمين في قارب واحد. وهكذا فإنّ اليسار قد أفقد نفسه حدّة التمييز الأخلاقية. لكنّي أريد ـ في هذا المحل أيضا ـ أن أبدي تحفّظي: فهذه الفئات اليسارية ليست سوى طرف من أطراف عديدة.

الصحيفة: هكذا نراك دائما تزوغ وتلتوي، فأنت تعتمد اعتمادا كلّيا على التعددية الواسعة، وعلى تعايش شتّى الاتجاهات المختلفة.

غلازر: تقوم السياسة الثقافية على أن نتفكّر في احتمالات كثيرة، فهي سياسة تحتاج إلى التصحيح والموازنة. وهاك مثالا: فعندما أقبل أن تكون المتاحف مستودعات لشواهد الإكبار والتقديس، أكون عندئذ صاحب مفهوم ثقافي محدد، وهو أنّي خال من كلّ تصوّر عن الثقافة. المتاحف تبنى كثيرا، والناس يفرحون بها. ولا ننسى أنّ من مزاياها إنعاش التجارة في المدن التي تكون فيها. أمّا إذا نظرت إلى المتاحف من حيث كونها أسسا في الحوار النقدي، أكون عندئذ متوخّيا أمرا آخر، فأصمّم متاحف أخرى، ليست كتلك الأولى، وأدعم عندئذ حركة التوعية والتنوير، لا عملا ثقافيا معيّنا، ما هو إلّا تغطية لعجز قائم. ومن البديهي أن أكون بذلك قد عرّضت نفسي إلى النقد ومواجهة من يواجهني من الذين يدّعون احتكار المعرفة.

الصحيفة: ماالذي يزعجك في احتكار المعرفة؟

غلازر: إنّي أَحَبُّ إليّ أن أكون مربيا مدرّساً. أما الذي أعيبه منذ زمان على المناهج التربوية الألمانية فهو أنّها تحدّ من سعة الأفق بقوالب المعطيات. فلو أنّ المدارس الألمانية فسحت لتلاميذها المجال لتعرّف حضارة اليونان والرومان والتفاعل معها، لما كان كبير خلاف في ما هو جمال وخير وحقيقة. أمّا أن يأتي المعلّم ويعرّف ما ينبغي على التلميذ أن يراه جمالا، فهذا هو التضييق بعينه.



الصحيفة: **أليست الثقافة عملية لا تنتهي؟**
غلازر: إرْجَعْ إلى ليسنغ وستقرأ: لا أدري أيتحسن الشيء إذا تغيّر، لكنّ الشيء يجب أن يتغيّر باستمرار لكي يتحسّن.

الصحيفة: والثقافة، أهي الموجود ليس غير؟
غلازر: الثقافة هي كلّ شيء لا يكون: أفكار بديلة باستمرار، تحرّر دائم من قيود الأنظمة، استشراف لا ينتهي إلى عالم لا يوجد، ثمّ المواجهة أبداً، والتمني، والترجي. اصدحوا بأناشيد ما حسب أحد أن يسمعها منكم، تخلقوا ثقافة.

الصحيفة: بتعبير أقلّ مجازا: للاقتصاد الأولية، والثقافة تظلع وراءه أبداً.
غلازر: (..) إني أنادي، بدون تحفظ، بتمويل الثقافة من الأموال العامة. وحتّى الذي يقرّ بأوّلية الاقتصاد، فعليه أن يبذل جميع جهده لخلق موازن لهذا الاقتصاد. ولا بدّ من أن يمضي زمن طويل حتّى يصل مسرح من مسارحنا أو دار من دور الأوبرا إلى تلك المرتبة الثقافية الممتازة.



الصحيفة: إنّ مفهومك للثقافة يتّسم بعمق وجودي. وما أرى إلّا أنّك قد سجّلت في سيرتك التجربة التي تركت الأثر الأعمق. وقد ظهرت هذه السيرة في كتيّبك المعنون «اقتفاء الأثر». كانت تلك التجربة بمدينة نورنبيرغ في العهد النازي. تصف إحدى المطاردات التي قام بها النازيون على عادتهم، وفي الغد ترى جارك وهو يعلّق بعناية بدلته النازية لتجفّ. فالذي يهولك هو تعايش الوحشية والنظام، وأن تكون الهمجية والحضارة جنبا إلى جنب.
غلازر: لم يبلغ النفاق الثقافي في أيّ دولة من دول أوروبا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الدرجة التي بلغها في ألمانيا. فأهماج الرايخ الثالث لم يكونوا عديمي الثقافة: فكان منهم المدرسون، والقساوسة، والأطباء، والأساتذة، والصنائعية. إنّما الثقافة لم تكن عند هؤلاء سوى واجهة تخفي انحطاطا ليس مثله انحطاط.

الصحيفة: السياسة الثقافية في عهد ما بعد النازية...
غلازر: ... يجب أن تكون ممكنة، ولكن لا يجوز أبداً أن نتوهّم السذاجة والبراءة في هذه السياسة، وعلينا ألّا نغفل أبداً عن كل الأشياء المنحطّة التي يمكن مواراتها بالثقافة.

الصحيفة: إنّك تقاوم ـ بلين ـ بعض المصطلحات المحددة المعترف بها. ونجدك تستعمل في التاريخ الثقافي مصطلحات حسنة الوقع، لكنها في حاجة الى تفسير، فأنت، مثلا، تسمّي المرحلة التي تلت الحرب مباشرة «وداعة مذعرة»، فما هذا؟
غلازر: هذه استعارة من المثيولوجيا اليونانية، إذ زعموا أنّ إله الغاب «بان» كان يقيل، فيعود الغاب هادئا وديعا، فإذا استيقظ «بان» أذعر الناس وهالهم.
أما وجه الشبه، ففي وقت الحرب كنّا نعلم تمام العلم أنّ الموت قد يخطف أيّاً منا، في أيّ وقت، فكانت الأوقات التي نظفر فيها بشيء من المتعة أوقات «وداعة مذعرة». أمّا بعد الحرب، فتغير مصدر الوداعة: لم يعد خطر تلك الغارات الجوّية المفاجئة يحدق بنا. صحيح أنّنا كنّا جياعا، لكننا كنّا نرقص، فكنا أيضاً في «وداعة مذعرة».
كثير من أبناء جيلي لم ينسوا تلك الأيّام أبداً، ولم يفارقنا الشعور الوجودي الذي اقترن بها، ذلك الشعور الذي

يجعلك تستقبل الحياة رغم كلّ الكوارث. ظلّ هذا الشعور في قرارتنا، وإن غطته من بعدُ مشاعر أخرى دون أن تمحوه.

الصحيفة: مصطلح آخر تستعمله: «باقي الجيل». وتقول إنّ موقف «باقي الجيل» هذا من الحياة هومزيج فريد من التسامي المثالي والواقع التجريبي. فما هذا؟

غلازر: قصدت بالتجريبية إلى الماديات. إذ كنّا وقتذاك نأمل أن يتحسن كلّ شيء تحسّناً كبيرا: أن نسكن منازل أفضل، ونأكل ماكولات أطيب، وأن نسافر أسفار السياحة والتمتع - أي كانت لنا الأحلام نفسها التي يحلمها الآن كثير من مواطني الجمهورية الألمانية الديمقراطية السابقة. ولا كبير اعتراض - فيما أرى - على التعلّق بمثل هذه الماديات. أمّا التسامي المثالي، فكان قائماً موجوداً، وقد جاء ملخّصا في تلك الصيغة التي صيغت للدستور الألماني، ثم لم تُدخل فيه وهي «عملا بأمل الألمان كلّهم». إنّها كلمات اجتمعت فيها كلّ التصورات التي كنّا وقتذاك خليقين أن نأملها. بعض تلك الآمال نجا من التلاشي وتلخّص في المبدإ القائل بأنّ المجتمع يجب أن يظلّ منفتحا للأشكال الديمقراطية غير الشكل الديمقراطي السائد فيه.



الصحيفة: مصطلح آخر من مصطلحاتك: «العمل العزيز» تقابله «بالعمل الذليل».

غلازر: أردت أن أقابل العمل الذليل بشيء يمكّن أيضا من توكيد الهوية عن طريق استيعاب ما تمّ إنجازه. والحقّ أنّنا لم نحقّق في ألمانيا شيئا كبيرا في تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين. وبالطبع يجب أن تُقوَّم المرحلة الفلهيمية تقويما أكثر إيجابية من المرحلة النازية. فقد كانت جمهورية فايمار بصيصا من الأمل، وإن كان شاحبا. لكن الحيّز قبل البرلماني، وقبل الديمقراطي، غني، كثير الكنوز الثقافية. لقد أدّت بي طريقة التقويم هذه إلى مفهوم الثقافة الصناعية. وما هذه الثقافة الصناعية إلاّ محاولة للاهتمام بتاريخ الناس. وليس أحقّ من أن نتساءل كيف تعيش أسرة عمالية في القرن التاسع عشر أو أسرة بورجوازية، فهؤلاء الناس كانوا يكدحون في تحقيق مجتمع أفضل. وقد أسسنا في مدينة نورنبيرغ مركز الثقافة الصناعية، ونظّمنا معارض، تدعم التاريخ المنقول، أي التاريخ من أسفل. هذا، في مفهومي هو «العمل العزيز». فالعزّة هنا لا تُملك، وإنّما يوصل إليها بالكد، إنها عزّة يجب أن تثبت نفسها باستمرار.

الصحيفة: أرى نورنبيرغ مجالا فسيحا «للعمل الذليل». وأنت من أبناء هذه المدينة التي نعتها لودفيغ فلس بأنّها مدخل جهنم الأخضر. فهل ترى مدينتك نورنبيرغ هكذا؟

غلازر: فنّانون كثيرون جعلوا نورنبيرغ والجحيم واحدا. فكانت كابوسا على هيرمان كيستن. وكان الرسام ريشارد لندنر يرى طابع الجحيم في مدينة الألعاب هذه. وكثيرا ما رأى الفنانون في شكل المدينة الملتوي رمزاً إلى الفزع والرعب. ففي نورنبيرغ تصطدم المتناقضات، فهي مدينة المباني العتيقة بنوافذها الجميلة، وهي أيضا مدينة الفظاعة والانحطاط.

الصحيفة: فيها إذاً «وداعة مذعرة»؟

غلازر: نعم. لكن هذا التأويل السيكولوجي

اللاشعوري لا ينصف نورنبيرغ من حيث هي مدينة تاريخية، كانت من المدن الجمهورية. فالنازيون لم يجعلوا من نورنبيرغ مدينة مؤتمراتهم الحزبية لأنّ حركتهم كانت منتشرة هناك بصورة خاصّة. بل إنّ ميل نورنبيرغ كان إلى برلين الجمهورية أكثر منه إلى ميونيخ التي تعدّ مدينة الحركة النازية.

الصحيفة: هل كانت نورنبيرغ بعد الحرب مدينة تعسة؟
غلازر: عرفت ميونخ بسهولة أكبر كيف تنسى الماضي، فتحوّلت إلى «مدينة عالميّة ذات فؤاد». ولا أحد يقول إنّ برلين تئنّ تحت عبئ ماضيها. أمّا نورنبيرغ فلم تستطع البتة أن تفلت من لوثة الرايخ الثالث. فقد اقترن اسمها أبداً بالمؤتمرات الحزبية النازية، وبمحاكمات نورنبيرغ. فليس هناك ما يمكن ستره أو إخفاؤه، ومن الصعب أن ينسى المرء في نورنبيرغ أو يتناسى. وبطبيعة الحال، حاول أهل نورنبيرغ أن ينسوا، لكّننا عمدنا إلى شيء آخر منذ منتصف الستينات، فأسّسنا «حوار نورنبيرغ»، ودعونا فريتس شتيرن وجان أميري، وكذلك هيرمان كيستن، ونورمان بيرنباوم، وبيتر بروكنر، وبيتر دي مندلسون، وهيلده روبنشتاين. كنا نريد أن نخلق هكذا ما يشبه الكلية، عاملين على إزالة وصمة العار التي علقت بالمدينة.



الصحيفة: شاءت الصدفة أن يتقاعد خلال فترة قصيرة أشهر علمين من أعلام السياسة الثقافية في البلاد. ولا يخفى أنّك قريب من هيلمار هوفمان في فكرك وعملك. لكن ما الذي يفصلكما؟
غلازر: لقد اقتديت بهوفمان في أشياء كثيرة. وكانت له في فرانكفورت مبادرات امتنع عني مثلها في نورنبيرغ. ثم إنّ شيئا ماسّاً لمفهومي للثقافة يفصلني عنه ـ ولعلي أن أكون قد أعوزتني المغريات. وأرى أنّ هوفمان، خاصّةً منذ قدوم فالمان إلى الحكم، لم يستطع في فرانكفورت أن يحقّق مفهوما للثقافة على نحو يلائم هذا المفهوم ماهو معروف بالثقافة البديلة، كما نجحنا في تحقيقه في نورنبيرغ هنا.

الصحيفة: فهل وضع فالمان يده على هوفمان؟
غلازر: لم يضع يده عليه، وإنّما جعله في وضع خطر. وبسبب التركيبة السياسية فإنّ الراديكالية لايمكن أن تتبلور كما ينبغي في مدينة فرانكفورت. ثم إنّ نورنبيرغ أقوى على التصدي للثقافة «بعد العصرية» وعالمها البراق. وقد ناضل هوفمان دائما بحماس كبير ضدّ هذه الثقافة، لكن التركيبة السياسية لم تكن مواتية.

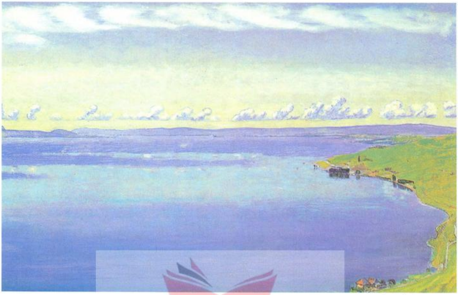
الصحيفة: كلاكما من الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وكلاكما يشكو بين الحين والحين قلّة اكتراث الحزب بكما. فلماذا لم يستغل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الفرص التي أتيحت في هذا المجال؟
غلازر: هذا من الألغاز الكبرى التي لم نفلح قطّ في فكّها. وأنا لا أغالي عندما أزعم أنّ كلانا، في هذا المضمون على الأقل، عديم الجدوى تماما.

الصحيفة: أهو إذاً كثير من «العمل الذليل» وقليل من «العمل العزيز»؟
غلازر: أجيبك بقول من قال: «ما أبعدَنا عن النصر! فحسبنا النجاة».

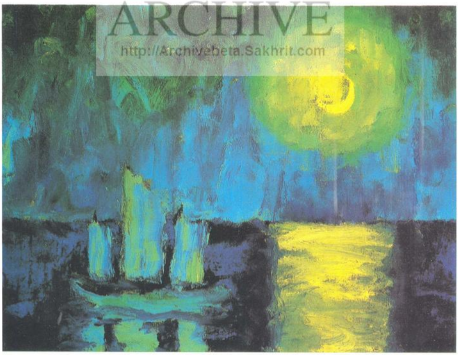
ميخائيل بوكمول

لون البُعد

نظّمت جمعية هايدلبيرغ للفنون معرضا، لا كباقي المعارض، استمرّ من مارس إلى مايو 1990 . فالمعرض لم يكن مخصّصا لفنّان بعينه ولا لمرحلة فنيّة أو تيّار من التيارات الفنية، وإنّما عُني بموضوع واحد : التشكيل الفنيّ للون واحد، الأزرق، «لون البعد» .



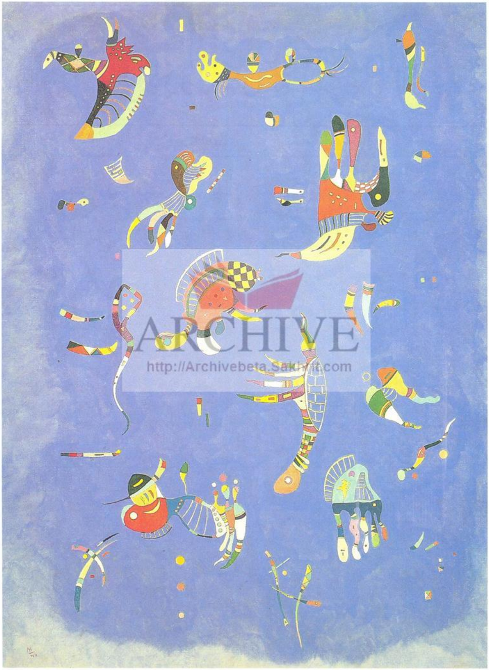
فرديناد هودلر، أزرق ليهان، 1904 . زيت على كتان، 70x108



إميل نولده، ليلة مقمرة، 1914 . زيت على كتان، 69x89 ، مِلكٌ خاصّ

وكان المعرض غزير المادة، كثير الزوّار، بعيد الصدى، قد بيّن مجالات اللون الأزرق بادئا بفنون الرسم في القرون الوسطى وعصر الرومانسية، فالنون العصرية الكلاسيكية، ومنتهيا إلى الفنون في الوقت الراهن. ومع أنّ هذا المعرض قدساير الترتيب التاريخي، فإنّه تطرّق إلى المواضيع الأساسية على نحو شامل، وجاءت صوره عارضه لمعاني هذا اللون التي كانت في كثير من الحالات متباينة، إن لم تكن متناقضة.

جمع المعرض 280 من المعروضات، لوحاتٍ في معظمها، إلى جانب



فاسيلي كاندينسكي، الأزرق السماوي، 1940 . زيت على كتان، 100x73

بعض المنحوتات والأعمال التشكيلية العصرية . ومن أشهر الفنانين الـذين عُرِضَ لهم نذكـر : كليـه ، وكـانـدينسكي ، وكـيرشنـر ، وكوكـوشكـا ، وديكس ، وشاغال ، وماغريته ، ونولده ، وبيكاسو ، وإيف كلاين ، ووارهـول . ونبّـه ميخـائيـل بوكمـول إلى المشـاكل المتّصلة بخبـرة اللون ، واتّخـذ بعض الصور المعروضة في هايدلبيرغ مثالا لتوضيح الشروط اللازمة لوعي لون معيّن ، اللون الأزرق ها هنا . وقد عُين بوكمول مؤخّراً أستاذا في علم الفنون بجامعة فيتن/ هيردكه ، وهي أول جامعة خاصة في جمهورية ألمانيا الاتّحادية .

الأزرق - رؤية اللون

من البـديهي أنّ اللون لايمكن له إلاّ أن يُرى . فاللون لا يُلقّن ، ومن لم ير الأزرق قط لا يمكن أن يدري فيم نتكلّم الآن . ولا يمكن أن يكـون أوضـحُ تعريف للأزرق عوضاً لرؤيـة هذا اللون ، وليس لإدراك اللون وشهوده والعلم به من أسـاس سوى المعـاينـة المباشرة . وعالَم الألوان مفتوح لكـلّ سليم الحـواس ، لكنّ كلاًّ يبصـر منفردا ، وفي حالية النظر يقف الوعي وحيدا أمام المنظور إليه . فكيف إذن نثق بأنّ شخصين يبصران الشيء نفسه؟ وكيف يكون التفاهم على اللون المبصور؟

عنـدمـا يَعِنّ اللون للمشـاهـد ، فإنّما تعنّ دائما درجة لونية معينـة ذات نوعيـة محدّدة ، ولا يمكن هذا اللون أن يتّخـذ مظهـرا آخـر ، وإلاّ استحال لونا آخر . فمظهر اللون ، وإن كان أحيانا مظهرا سريعا مفرطا في السرعة ، يخبرنا يقينا بأن الأزرق الـذي رأينـاه أزرقُ . فهـو أزرقٌ ، مهـما سمّينـاه ، وحقيقـة اللون الجليـة يحيط بها الوعي دون وساطة لغوية .

لكن ، على قدرما يكـون اللون واضحـا بذاتـه عنـدمـا يتجلّى للبصـر ، يكـون إدراك هذا اللون من حيث كيفيته الجلية عسيرا ، إذا اردنا أن ندركه كوحدة لا تثبت ذاتها إلاّ بذاتها . فالسؤال البسيط : ممَّ نعرف أنّ الأزرق أزرق؟ لا يستتبـع إجـابـة سهلة . واللون المـرئي - كما قال غوته - هو «سـرّ جلي» . جلي ، لأنّـه يتجلى للنظـر كاملا وبـدون واسطـة . وسرّ ، لأنّه في متنـاول البصـر ، والبصر وحده ، فيمتنع عن الفهم أوّلا .

ورؤيـة اللون ليست متعلّقـة بتحديد المفهوم ، وإنما بالخبرة (من خبر الشيء علمه بحقيقته) ، فتعريف اللون الأزرق لا يفيـد في استنبـاط حقيقـة هذا اللون . وهكذا سنحاول فيما يلي أن نعرض لبعض الجوانب من الطريقة الخاصة التي يظهــر فيهــا اللون الأزرق ، هدفُنـا أن نصف في خطـوط عريضـة «حـدوث» الأزرق وتجلّيه . ومع اعترافنا بأنّ اللغة لا تتـوسّـط مبدئيا بين الإدراك وحقيقة اللون الجلية ، فإنّنا سنصف ، في بعض الحـالات ، كيف «يحدث» الأزرق في أثنـاء المشـاهـدة ، وكيف يلوح ، ويثبت ، ويتحوّل ، وكيف تكـون اتجـاهـاتـه والأشكـال التي يتّخـذهـا والحدود التي ينحصر فيها .

لكنّ محاولتنا هذه تستـوجب مجال خبرة مشـتركا ، كمجال الفن ، مثلا . ففنّ الرسم ليس يعرض للبصر عيّنات لونية فحسب ، وإنّما يعرض اللون مهيّأً ومشكّلا كثيراً أو قليلا ، كما يمكن أن يُشكّـل لونٌ ، الأزرق مثـلا ، ويُهَيَّـأ . وبما أنّ الرسام يرسم ويشكّل اللون كما يراه ، فإنّا نرى من المعقول أن تتخـذ الأعـمال الفنيـة نماذج لوصف اللون في حقيقتـه الجليـة . الـرسـام لا يتكلّم عن اللون وإنّـما يعمـد إلى إجـراءات خاصـة - كالتنقيـة ، والـتركيب ، ونشـر الصبـغ إلـخ . . لخلق وضـع حسّي يُمكن فيه للّون أن يظهر على نحـو مميّـز خاصّ . ومـا دام الـرسم يشكّـل اللون المرئي ويهيئـه ، فإنّـه لا يدلّ على اللون بصـورة عامـة وحسب ، وإنّما يدلّ أيضاً على كيفية رؤية هذا اللون .

ولكن ، في العـادة ، لا يصـدّق عينـه إلا الفنّان . وثمّة آراء ومعلومـات ، سنعرض لها هنا بإيجاز ، تخالف الرأي القائل بأنّ حقيقـة اللون تتجلّى كاملة للرؤيـة . ولهـذه الآراء والمعلومـات ما يبرّرهـا في نطـاقها الخاصّ . فالتعرّض لهذه العـوائق ومنـاقشتهـا يحددان ، على نحو غير مباشر ، مجال جلاء اللون ويعيّنـان مكـانـه ويسطّـران في ذات الـوقت ، حدود صلاحيته .

مسألة الذاتية

لابدّ من أن ننتهي إلى مسألة الذاتية عندما ندرك أنّ الوعي يكون أوّلا وحيداً أمام ظاهرة اللون، كما هي الحال في كلّ حدث حسي. فقبل أن نخبر الآخرين بخبر سليم، يجب أوّلا أن نشرح نوع العلاقة القائمة بين اللون الحاضر للذات وبين حقيقة اللون الموضوعية... ولا فائدة في إعادة قول القائل إنّ اللون لا يُدرَك إلّا بالنظر وحده، بل يبدو من الضروري أن نطرح هذا القول جانبا، وأن «نغضّ النظر» إذا أردنا أن ندرك اللون على نحو موضوعي.

اللون كصفة من صفات الأشياء

تظهر الألوان في الأشياء، كالقلم الأخضر والقميص الأحمر: فاللون يظهر كصفة. ولكن تعريفُنا اللونَ على أنّه صفة يفترض حكما وتقويما مسبقين. نفعل ذلك لأنّا نقول: قميص أحمر، ولا نقول أحمر قميصيّ، والقميص لماديته، يدركه البصر، وتدركه حواسّ أخرى، فيمكن لمسه والشعور بحرارته. وهذا يكفي ليجعل القميص مستحقاً للوجود الفعلي. أمّا اللون الذي لا يدركه إلّا البصر فيُحتمَل أن يتغيّر، بينما يظلّ القميص ثابتا، ونحن لنا ثقة ساذجة بثبات مثل هذا القميص من الأجسام. غير أنّ ثقتنا بثبات الأشياء المادية تشتمل اللون أيضا إذا تقرّر لدينا أنّه صفة لشيء مادي، فنعتقد في الغسق أو في الليل، أنّ القميص المذكور أحمرٌ، مع أنّ لونه قليل الاتضّاح، بل ربّما لا يظهر أصلا. وعلى هذا يكون أمامنا اللون الأحمر نفسه، لكن في ظروف أخرى. وهكذا، يبدو أنّ اللون ـ على عكس ما توصّلنا إليه سابقا ـ قد يتّخذ مظهراً غير مظهره الحقيقي. ولكنّنا نريد أن نلاحظ هنا بتوكيد أن هذا الرأي يستتبع أن التصوّر والمشاهدة الفعلية قد يختلفان كلّ الاختلاف.

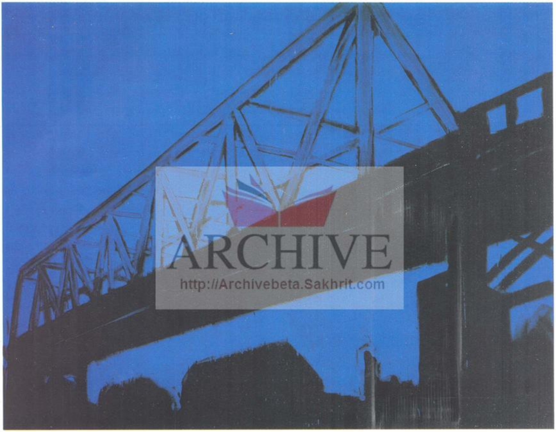
وثمّة رأي آخر يؤخذ به عن وعي أو عن غير وعي، وهو الرأي القائل بشرطية مظاهر اللون. فثقتنا بثبات الألوان راجعة إلى معرفتنا بأنّ الألوان تتّخذ المظاهر نفسها في ظروف الإضاءة نفسها. وبالبديهة التي نقدّر بها أنّ اللون صفة، نقدّر أنّ «مظهره» يكون لذلك متعلّقا دوما بظروف الإضاءة السائدة. والذي نريده هنا هو الإشارة إلى أنّ نتائج الآراء المذكورة تجعلنا خليقين بأن نحدّد اللون المستوعب واللون المرئي على أنّهما لونان مختلفان.

تحديد العلوم الطبيعية للون

اللون ظاهرة طبيعية، فيجب، ضمن موضوعية الطبيعة، أن يفهَم من علاقته بقانون من القوانين الطبيعية. والعلم يبحث في الظواهر بحثا كاملا قدرَ الإمكان ويحاول أن يردّها إلى مبدأ موحّد: فالضوء، وهو غير مرئي، يُعَدُّ السبب الأصلي لظهور الألوان. وَلْنَتْرُكْ هنا النظر في المسألة التالية: إلى أيّ مدى يصحّ، بالنماذج الفيزيائية الأساسية، تحديد اللون على أنّه عنصر من عناصر الضوء. ولانريد، في هذا المكان أيضا، إلّا أن نسجّل أنّ تحديد قوانين اللون لا يبدو ممكناً إلّا في خارج حالية اللون الجلية.

ويتمّ تحديد الأزرق في هذا السياق بالإحالة إلى مجال من الذبذبة الكهرمغناطيسية ذي طول موجي محدّد. ولكنّا نلاحظ أنّ الذبذبات ذاتها ـ على عكس اللون الأزرق ـ لا يدركها البصر، فالعمليات الكهرمغناطيسية تقع خارج مجال الحسية. ومع هذا، يُفترض أنّ طول موجة معينا يكون ذا علاقة بلون معين، وذلك دون فحص وتحقيق ودون أن تُرى تلك الموجة ولو مرّة واحدة. وعلى أقلّ تقدير، يظلّ سؤال بدون جواب: ماهي المقاييس التي تميّز مجال الأزرق، مثلا، من مجال الأخضر أو مجال لون النيلة في سلسلة الذبذبات الآخذ طولها في زيادة أو نقصان





هيلموت ميدندورف، الجسر، 1980 . ألوان صمغية على كتان، 210x270 ، ملكٌ خاصّ

ـدي فارهـول، «ماريلين في
ع»، 1980 . أكريل وطباعة
ن الكتان، 137x105.5

مطّردين، إذا كان لكلّ من هذه الألوان الثلاثة جوهر جلي ينفرد به ويميزه من الألوان الأخرى. فهذا التميز بالذات لا يمكن تحديده بطول الأمواج الكهرمغناطيسية. ولا يصحّ إلّا العكس، أي أن تُرَدَّ ألوان الطيف المرئي إلى أطوال موجية معينة. وبما أنّ العمليات الفنية تمكّن من إعادة ظروف التحليل الطيفي، قَوي اعتقادنا بموضوعية اللون خارج مجال رؤيته.

ويصحّ الشيء نفسه عندما تحدَّد القوانين التي تحكم ظهور الألوان تحديدا يعتمد على فيزيولوجيا العين وتركيبها. وفي الجملة، فإنّ محاولة إدراك اللون على أنّه صفة للأشياء، أو على أنّه عنصر من عناصر الضوء، أو على أنّه إثارة لعرق من العروق، تَصْرفُ الانتباه عن المعاينة الفعلية للّون وتبحث عن حقيقته في مجالات لا يظهر اللون فيها كلون. ويجب، في هذا الصدد، الإشارة إلى علم الألوان الذي وضعه غوته، إذ قام بأوّل محاولة علمية لاكتشاف قوانين الألوان من حيث هي تأثير الضوء في حالة المعاينة، أو بعبارة أخرى: من حيث كون الألوان ظواهر وأحداثاً وحقائق ظاهرة بذاتها، منتسباً بعضها إلى بعض، أو من حيث كون الألوان، كما قال غوته «أفعال الضوء وآلامه». فنظرية غوته ها هنا نظرية بأدقّ معنى الكلمة، إذ هي تنطلق من النظر وتعتمد عليه ولا تخرج عن مجاله.

التحديد السيكولوجي

ليس إدراك الألوان مقتصرا على أنّها صفات للأشياء أو ظواهر تحكمها قوانين الطبيعة، فالوعي لا يحيط بالألوان دونما تفاعل، بل يحدث أن يقترن إدراك اللون بشعور معيّن، أو بأحاسيس أخرى غير بصرية، أو بذكريات فردية أو جماعية. وهذا ما لا يمكن تحديده بالطريقة التي تحدَّد بها قوانين الطبيعة. غير أنّ الخبرة الذاتية تعطينا في هذا المجال مقياسا نُقَوِّم به الألوان تقويما عاما غير دقيق، لكنّه تقويم على كلّ حال.

نذكر في البداية العادات المتّصلة بمعاينة الألوان، وهي عادات تطوّرت تاريخياً وإثنولوجيا تطوّرا متفرّعا، إن لم يكن متباينا. من هذه العادات، مثلا، أن نأخذ اللون الأزرق على أنه «لون البُعْدِ»، وهو الموضوع الذي عالجه معرض هايدلبيرغ. بيد أنّ سؤالا يظلّ - في هذه الحالة أيضا - بدون جواب: فما فائدة الاتّفاق على تعريف اللون على هذا النحو إذا لم يكن التعريف مدعوما في كلّ حين بالمعاينة الحالية المتحرّرة من قيود كلّ عادة واصطلاح. فإذا قيل: قد اصطُلح قديماً على أنّ الأزرق هو كذا وكذا، قلنا: هذا لا يخبر عن جوهر الأزرق بشيء. ونعود إلى علم الألوان الذي وضعه غوته مشيرين إلى قيمة اللون من حيث تأثيره «الحسي - المعنوي»، وإلى أنّ وحدة اللون الجمالية ومفهومه المجازي ورمزَه أشياء مرتبطٌ جميعها بالمظهر الطبيعي للون. وهكذا فتح غوته طريقا تؤدّي من معاينة الطبيعة إلى معاينة الفنّ، ومن الفن وعبره إلى معاينة جوهر اللون في جلائه. فَلْنُسَمِّ هذه الطريق التي رسمها غوته «طريق المعاينة».

ونلاحظ أنّ طريق المعاينة هذه تعترضها عدّة حواجز غير التي ذكرنا. فالحواجز ليست في مجال معاينة الطبيعة والمجال النفسي وحدهما وإنّما نراها خاصة تنتج عن الرؤية التقليدية لعلم الجمال وبالذات في مجال النظرة إلى الفنّ.

المعاني والإشارات والرموز

من الأساسي في الفن أن يُهيَّأ اللون ليكون حاملاً للمعاني أو الرموز أو ليكون إشارة، فيؤدّي ترابط معنوي حسي إلى أن «يُفْهَمَ» اللون على النحو المراد. أمّا تصوّر اللون كرمز أو إشارة فيحمل معه في مجال الرؤية مشاكل نوضّحها هنا بمثال خارج عن مجال الفنّ، وهو إشارات المرور الضوئية. فدور الألوان في إشارة المرور قد اتُّفق عليه اتّفاقا، وكان من الممكن أن يُتّفق على عكسه، أي أن يكون اللون الأخضر إشارة الوقوف والضوء الأحمر إشارة السير. فاتّفاقٌ من هذا

القبيل يخلق رمزا للون خارجيا، أي ليس منه، فيجب أن يُعْلَمَ ويُلَقَّن. فهو رمز ليس نابعا بتاتا من مظهر اللون الجلي. أمّا في العمل الفني، فيحدث أن تكون للألوان معان ورموز أبعد درجات في التعقيد منها للألوان في إشارة المرور التي ذكرنا على سبيل المثال. وسنرى في الأوصاف اللاحقة والمناقشات كيف يتركّب معنى بعض الألوان المجعولة في الصورة من معنيين: معنى مراد يأتي عن عمد، ومعنى عن غير عمد يأتي عفواً. فاللون يتّخذ هنا معنى مقصودا أو غير مقصود، يتداخلان عادة ويمتزجان. وسؤالنا هو: كيف تكون العلاقة، في حالات كهذه، بين نوعية الألوان في تجليها التلقائي وبين المعاني التي تتّخذها؟

التصويرية ـ فصل القيمة التمثيلية عن القيمة الذاتية

تزداد العلاقة بين اللون المرئي ومعناه المحدّد تعقيدا عندما يُتّخذ اللون لتعيين الشكل كما يحدث ذلك في الرسم التشكيلي. فإذا عدنا إلى مثال القميص الأحمر فإنّا لا نميّزه مرسوما إلاّ لكون اللون الاحمر صفة من صفات هذا القميص، تمنحه طابعا ماديا، مع أنّ اللون في هذه الحال هو الشيء الوحيد الموجود حقيقةً، بينما لا وجود للقميص إلاّ في المخيلة. وفي الفنّ التشكيلي، تقع قيمة اللون الظاهرة، من جهة، وقيمته التمثيلية، من جهة أخرى، في مجالات مختلفة كلّ الاختلاف، لكنّها مجالات تتداخل وتتفاعل عند مشاهدة الرسم، فتساهم في التعقيد المبدئي الذي يختصّ به الرسم التشكيلي. وإنّ الاهتمام بالقيم التمثيلية دون غيرها يكون عادة مانعا لإدراك أثر اللون المتجلي. وهذا ما يحدث خاصة في مجال الرسم التشكيلي المنطقي، أي في الرسم ذي الاتجاه الواقعي، حيث لامعنى للون، كما يبدو، سوى أنّه صفة للجسم المرسوم. وهنا يظهر كلّ التباين بين اللون كأداة للتجسيم، هذا اللون الذي يكون دائما صفة لشيء سواه، وبين اللون الذي يتجلّى من حيث هو لون، حاملا قيمته الذاتية. ففي الحالة الأولى يتراجع اللون من حيث هو لون ظاهر وتتقدّم الصفةُ، إذ لا يصلح أن يجلب اللون الانتباه ويقيّده، فلا يظهر الشيء المرموز إليه باللون.

الرسم العصري كمجال لخبرة الألوان خبرة مباشرة

كانت هذه هي المقدمات الموضوعية التي حدت بالفن، منذ بداية القرن العشرين، إلى إضعاف الجانب التشكيلي أو حتّى إزالته لصالح عرض حرّ للّون بقيمته الذاتية، وقد ذهب الرسامون في ذلك شتّى المذاهب. فالرسم التجريدي ـ أو كما يسميه كاندينسكي: الرسم الواقعي ـ هو المجال الذي يمكن ان يظهر اللون فيه محرّرا من التصورات التجسيمية.

كما أنّ اللون في الرسم التجريدي قد تحرّر من الارتباط بالمعاني المأخوذة والرموز، ومن الارتباط بظروف الظواهر الطبيعية وحدها تحرّرا ماكان في أي وقت مضى. لكنّ هذا لا يعني أنّ اللون لم يعد في الرسم التجريدي أكثر من حدث حسي، ونُنَبّه إلى أنّ معنى اللون، في الرسم التجريدي، يأتي من مصادر غير المصادر الخارجية التي تلحق باللون المعاني والرموز. ثم إنّ اللون في الصورة لا يقلّ «طبيعية» عنه خارج الصورة. لكن اللون في العمل الفني يظهر في محيطه الأصلي، في وحدة تُكَوّنها علاقته بالألوان الأخرى وبالأشكال الخاضعة بدورها للألوان، إذ لا شيء آخر يؤثّر فيها. فالرسم التجريدي يُظهر، إذن، اللون من حيث هو لون تراه العين فيشكّله الفنان للعين. ويحصل في الفن أن تُعرَض حلول فردية كثيرة لمسألة عامة واحدة. وهكذا، فإنّ معرض «الأزرق ـ لون البعد» قد جمع صوراً، حملت طائفة من خبرات الأزرق، تُبيّنُ على نحو فردي وجماعي أثر الأزرق وخصائصه أثناء المشاهدة. وهذا ما سنعرض له في المقال اللاحق مستخدمين عددا قليلا من الصور المعروضة. ●

عودة إلى المرأة العربية

دوروتيه كرويتسر

انعقد في العام الماضي المهرجان السابع للأفلام الفرنسية بتوبنغن، وهي مدينة جامعية هادئة، تقع في الجنوب الغربي من ألمانيا. ويتميّز هذا المهرجان بتخصّصه، كما يظهر من اسمه، وبما يعالجه من المواضيع الجانبية. وقد عرض مهرجان العام الماضي للجمهور خمسة عشر فيلماً من الأفلام الفرنسية الجديدة، بعضها عُرض للمرّة الأولى في ألمانيا، كما عرض طائفة من أفلام «الطليعيّين» من أعوام العشرينات ومجموعةً بعشرة أجزاء تقديراً للممثّلة جان مورو. وألقت سوزان بارون ـ معدّة الأفلام الواسعة الشهرة ـ محاضرةً في المهرجان استغرقت عدّة ساعات، بيّنت فيها كيف رُكّبت أجزاء كاملة في أفلام مشهورة من مقاطع ومشاهد صُوّرت على انفراد ثمّ جُمّعت. أمّا موضوع مقالنا، فهو ما اشتمل عليه هذا المهرجان من أفلام دول المغرب العربي.

ونشير إلى أنّ مهرجانات توبنغن عرضت في السابق أفلاماً من الدول الإفريقية ـ غير العربية ـ الناطقة بالفرنسية. ذلك لأنّ الفرنسيين يرون أنّ مفهوم ثقافتهم قد اتّسع ليشمل بعضاً من النشاط الثقافي في المستعمرات القديمة التي مازال فيها التأثير الفرنسي قوياً. أمّا أفلام المغرب العربي التي عُرضت في المهرجان الماضي، فكان تقبّل الجمهور الألماني لها محدوداً لأنّها ـ كالأفلام العربية الأخرى ـ شبه مجهولة في جمهورية ألمانيا الاتّحادية. ذلك لأنّ الأفلام غير الأوروبية وغير الأميركية لا تُعرض إلّا في التلفزيون أحياناً، وفي ساعات متأخّرة، فلا يشاهدها إلّا جمهور محدود. ثمّ إنّا إذا أخذنا هذه الأفلام الهامشية الشهرة في ألمانيا، وجدنا حصّة الفيلم العربي فيها ضئيلة بالمقارنة، مثلاً، بالفيلم الصيني الذي قد يجلب اهتمام المتطلّعين إلى البلاد النائية والحضارات الغريبة وأساليب الحياة المجهولة في المجتمعات الغربية. فخاصيّة «الغرابة» هذه قد قلّت في رؤية الأوروبيينّ للعالم العربي، ولعلّ أهمّ ما يعلق الآن بأذهان عامّة الألمان هو الفرق بين وضع المرأة الغربية والمرأة العربية. وإلى هذا الموضوع تطرّقت أفلام المهرجان المعروضة من المغرب والجزائر وتونس.

وكان أكثر هذه الأفلام تحليلاً فيلم «السمة» للمخرجة التونسية ناجية بن مبروك. (لسنا واثقين من نقل الأسماء نقلاً سليماً، إذ هي لدينا مكتوبة بالفرنسية). تدور أحداث الفيلم حول الصعوبات التي تواجه طالبة للأدب في تونس، جاءت من الجنوب من وسط شعبي، ولم تتمكن في تونس العاصمة من الظفر بغرفة في دار الطالبات، تستقلّ بها وتستعدّ فيها للامتحان. ويعرض الفيلم في أثناء ذلك ذكريات في مشاهد متقطّعة تستعيد الطالبة فيها أحداثاً متصلة بوضعها الاجتماعي كمرأة. وهكذا تتنوّع المشاهد وتأتي بتفاصيل إثنولوجية عديدة، تجعل هذا الفيلم كثير التنوّع وتخرجه من الإطار الفولكلوري الذي يكون عادة للأفلام التي تحكي مصائر قليلات الحظّ. وينتهي الفيلم إلى موقف مثير: أستاذ فرنسي يُسقط الطالبة في الامتحان لأنّها أبت أن تتلو قولاً من أقوال روسو عن ظهر قلب، واختارت أن تؤدّي المعنى بتعبيرها الخاصّ. أحداث هذا الفيلم تعرض في معظمها قصّة حقيقيّة، قصّة المخرجة نفسها؛ فبعد أن رسبت الطالبة في الامتحان، غادرت تونس والتحقت بإخوان لها في الخارج حيث عملت وكدّت وصارت مخرجة ناجحة.

أمّا الفيلمان المغربي والجزائري فكانا من حيث العرض وطرح المشاكل أقرب إلى الطرق التقليدية. «باديس»، الفيلم المغربي يروي قصّة حقيقية حصلت قبل ثلاثين

عاماً في إحدى قرى السكاكين الصغيرة بالقرب من باديس: امرأتان مضطهدتان تتمرّدان فيقتلهما أهل القرية رجماً. يفضح فيلم «باديس» النفاق، والتصنّع، والكيل بكيلين في الأخلاق؛ كذلك الفيلم الجزائري «القلعة» الذي تدور أحداثه في قرية جبلية: هناك يعامل رجل من أعيان القرية نساءه الثلاث معاملة العبيد، يكدحن في بيته، ويتّخذ هو امرأة الحذّاء الفاتنة عشيقةً. يتصرّف بمكر ودهاء: في الظاهر شيخ وقور يذكر الله كثيراً فإذا خلا إلى شياطينه فماجن خبيث، لا يتردّد في التنكيل بالشاب الذي تبنّاه. ذلك أنّ الشاب يحبّ، هو الآخر، امرأة الحذّاء، لكنّ حبّه إيّاها حبّ بريء تستاء منه القرية مع ذلك، وتطلب إلى الشيخ أن يكفّه عن كلّ اتّصال بالمرأة. وينتهي الفيلم نهاية «سُرّيالية» بأنْ يزوّج الشيخُ الشاب دميةً.

ونذكر أخيراً فيلم «صفائح من ذهب» للمخرج التونسي نوري بوزيد، وهو فيلم يتميّز بالعمق والجذرية، لا يعرض للنساء في الدرجة الأولى، وإنّما للحالة النفسية الشبيهة بالخُمار التي أصبحت فيها نخبة من أهل الفكر بعد أن أخفقت المشاريع القومية اليسارية. يصف الفيلم الأزمة النفسية التي يقاسيها أحد المثقّفين كان في السابق عضواً في منظّمة «آفاق»، فسُجن، ثم خرج من السجن منذ قليل. وفي ليلة عاشوراء، يقصد بطل القصّة بقاع الماضي، والذكريات تلسعه، ذكريات الملاحقة والسجن والتعذيب. ويأتي هنا للنساء دورهنّ الهامّ في الفيلم. فالبطل في حيرة، ممزّق الفؤاد بين نمط الحياة التقليدي ونمطها العصري. وقبل سنوات، كان تحوّل من بيته المتواضع في أحياء المدينة القديمة تاركاً زوجه وأطفاله ليعيش مع أستاذة جامعية من أسرة ثريّة عيشةً تناسب رغباته الفكرية وتشبعها. ثمّ إنّه يواجه بأنّ ابنته غدت عشيقةً لأحد زملائها، فتغثّ نفسه. استخدم الفيلم كثيراً، وبطريقة ناجحة، أسلوب العرض بالمشاهد المتقطّعة لاستعادة الماضي وإظهار سطوته على الأحداث. وكما فعلت ناجية بن مبروك، فإنّ نوري بوزيد عرض مواقف من حياته الخاصّة. ●



صور من فيلم «باديس» للمخرج المغربي محمد عبد الرحمن التازي

قلّة الاكتراث بالنظرية في كثير من المجلات الألمانية الجديدة

بيتر هوفمايستر

من جملة ما توّصلت إليه الحركة الطلابية في أواخر الستينات وأوائل السبعينات هو استقطابٌ في مجال المجلات الألمانية، فكانت تلك الحركة حافزاً على ظهور نظام يُصنّف الأشياء ويضعها في قوالب كاليسارية واليمينية، والتقدمية والمحافظة، والديمقراطية القاعدية والاستبدادية، حتّى كاد يؤدّي ذلك إلى ما يشبه عملية اجتماعية لغسل الأدمغة. وكان أتباع هذه الطريقة يقولون لك فوراً وبدون ارتباك ما اتّجاه هذه المجلة أو تلك. يحكمون حكماً جزماً، وما يظهرون في الواقع إلّا افتقاراً إلى شيء من الذكاء وخفة الروح. ويصعب اليوم تصنيف الأشياء على هذا المنوال، وليس من السهل أن نتنبأ بالمواقف السياسية لكثير من المجلّات التي أُسست في المدة الأخيرة. فهذه المجلّات الجديدة مختلفة شديد الاختلاف، تتباين نزعاتها من النزعة الوطنية والأهلية إلى النزعة الحالمة إلى المعارضة المطلقة. ثم إنّ الغموض في تحديد الاتجاهات والنزعات قد ازداد بعد الانهيار الأيديولوجي الذي شهده المعسكر الشرقي. فالاشتراكية كانت إلى ذلك الوقت دليلاً يستدل به أتباعها وخصومها على السواء لتحديد الميل والنزعة. ومهما يكن من شيء، فقد ينقضي وقت غير قصير حتّى ينجلي الضباب وتتوضّح الرؤية.

لنلتفت، مثلاً، إلى مجلة Etappe التي تصدر منذ سنتين والتي ما انفكّ مُصدروها يؤكّدون أنّها مجلة مستقلة، لا تتبع أحداً، أيّاً كان. تناول العدد الخامس مواضيع حول إرنست يونغر، وماكس شتيرنر، وكارل شميت، وريتشارد فاغنر، وحول النظريات السياسية. ولو أردنا أن نطبّق القوالب التقليدية في تقويمنا لهذه المجلّة لقلنا إنّها «يمينية محافظة». لكنّ أكثر ما يميّز هذه المجلّة هو، في الواقع، التهكّم والسخرية. ومن يتهكّم ويسخر، فهو - كما كتب كريستيان إنفرتساغت عن جان بودريلار - يعلم أنّه لا يقدر على شيء، فلا بأس إذاً من أن يتهكّم. ومادامت جميع النظريات قد بطلت، فلم يبق إذاً إلّا الالتفات إلى الإخراج والجوانب الجمالية.

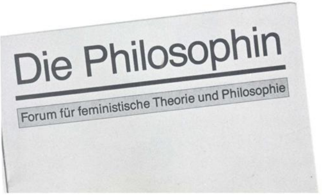
وتعمد مجلة Etappe في تقويمها الذاتي إلى النادرة والدعابة وإلى الدعاوي والملح. لكن، أين الحقيقة؟ وأين أمانة التقرير؟ سؤال بسؤال: ما تعريف الحقيقة؟

أوليس الترفيه أمتع من الاستقصاء؟ ومن يدري، فلعلّ المواقف السياسية قد اتّخذت عن استياء، خاصة بعد أن خوى اليسار وأجدب. والميل إلى التناقض والأوضاع المقلوبة واضح، فنحن نفكّر هاهنا في إرنست يونغر الذي أسرف غونتر ماشكه في مدحه، واصفا اياه بأنّه مقاوم، يعشق الحرية ويدافع عن البيئة. فهل قصد غونتر ماشكه بمدحه المفرط إلى «اليسار اليونغري» أم هل فكّر في بريشت الذي قال عن يونغر «لا تذكروا لي سيرته»؟ الواضح أنّ النغمة الأساسية في مثل هذه التصريحات تتلخّص في السحر المنبعث من شخصية يونغر، ذلك الرجل الذي قاوم الديمقراطية ودعا إلى الحرب ورغّب فيها في فترة جمهورية فايمر.

ونلحظ شيئا مماثلاً في مجلة أخرى، مجلة Pfahl التي تتّبع منهج «التعددية بعد العصرية» وتتّخذه ذريعة للرفع من شأن المفكّرين الذين قاوموا التنوير والحركة الديمقراطية، وإن كان هذا التأييد والمدح مكسوّين بشيء من الاعتدال. والملاحظ أنّ ناشر هذه المجلّة لا يهتمّ بالنظريات اهتمامه «بالمقولات الوجودية الأصلية» و«بعبقرية الجوهر». وبما أنّ هذا الناشر يُؤثر كلّ ما هو راديكالي ومخالف للاتّجاهات السائدة، فإنّه يأتي في مجلّته بنصوص لكتاب أمثال سيوران باتاي، وهايدغر، وبلوي، وكارل شميدت. صدر الآن العدد الثالث من هذه المجلّة، وهو كثير الأقوال المأثورة، ذو أسلوب خفي النكتة. ونذكر من المجلات التي تأسست موخّراً:

مجلة Philosophin ذات النزعة النسائية الأكاديمية، وهي مجلّة عالية المستوى.

ومجلّة Rübe التي تتناول فنّ الطبخ على نحو غريب حقّا، فناشر المجلّة لا يأخذ شيئا مأخذ الجدّ ويعمد إلى السخرية والتهكّم أكثر من عمده إلى الملح والفلفل الأسود.



ومجلة Salbader مضحكة هي الأخرى، لا مجال فيها لجديات النظرية، فكأن هيئة التحرير قد تحالفت ضد الواقع، فطفقت تصنع المقابلات الوهمية التي تتندر فيها بالرصيد المعنوي للكتاب أيّما تندّر.

ومجلّة Zeichen und Wunder التي لفت عددها الأخير بحديث من وراء القبور، نقاش حول أدورنو، ساهم فيه شيلر، وليسنغ، وفيلند، ولشتنبيرغ، وغوته، وشوبنهاور. والجدير بالذكر أنّ التناقض بين الحركتين الطليعية وبعد العصرية كان من أهمّ الظواهر التي طبعت الحركة الأدبية في الماضي. وأخطأ من حسب أنّ الحركة الطليعية قد اندثرت، فهي ما زالت ذات خصب يجعلها تؤسّس مجلّات مثل Solande ذات الأسلوب الشعري والمحتوى الخاوي. وفي مجلة Auf, und, davon يزعم هورست هابرل وبيتر شتراسر أنّ حالة الترحال والتنقل التي يشهدها التيّار بعد العصري ماهي إلّا شكل من أشكال المعارضة لبلادة البرجوازية الصغيرة.

أمّا في الجمهورية الألمانية الديمقراطية سابقاً، فلم تؤسس قبيل الوحدة إلّا مجلّات قليلة جديرة بالاهتمام. والنقص راجع، بطبيعة الحال، إلى الوضع الغامض وقتذاك. من تلك المجلات نذكر Eselsohren، وهي مجلّة مراجعات للكتب في شرق ألمانيا وغربها لا تخلو من الظرف. وقد طُبع، قبيل الوحدة، في الجمهورية الألمانية الديمقراطية عدد نموذجي لمجلة Kultur und Kritik التي تعمل على تأسيسها مجموعة من الفلاسفة بلايبتسغ، سعيا منها إلى استيعاب الماضي واستطلاع المستقبل.

ويبدو الآن أنّ سوء الظنّ الذي كان يكنّه كتاب المعارضة وناشروها لدور النشر الحكومية في برلين الشرقية قد تحول إلى سوء ظنّ بوسائل الإعلام الرأسمالية. ولهذا ما انفك أولئك المعارضون يؤسّسون دور نشرهم الخاصة، ينتجون فيها ويوزّعون، فلا تفلت أدبياتهم من أيديهم. فهل ستكون النشرات الجديدة بنفس مستوى الجودة التي كانت عليه المجلة السرية Liane أو مجلة Zündschrift التي تأسست بعدها؟





ZENARCHY IN THE UK

oder

DIE ABENTEUER VON JIMMY UND BILL IM SCHALLPLATTE…

Am Neujahrsmorgen des Jahres 1987 ging Bill Drummond spazieren. Die frühmorgendliche Stille und das symbolträchtige Datum waren wie geschaffen dafür, über Große und Wichtige Dinge nachzudenken. Und das tat Bill auch. Er dachte über sein bisheriges Leben nach. Was hatte er nicht schon alles erlebt! Als Hochseefischer, Bauarbeiter, ja sogar Türsteher hatte er gearbeitet, ehe er im Sog von Punk und New Wave sein Glück als Musiker versuchte. Gemeinsam mit Holly Johnson war er damals Mitglied der legendenumwobenen Kult-Gruppe **Big in Japan** gewesen, hatte dann aber die Fronten gewechselt und sich als Manager und Produzent von Bands wie **Echo & the Bunnymen**, **The Teardrop Explodes**, **Zodiac Mindwarp** und den **Proclaimers** einen Namen gemacht. Zuletzt hatte er eine, allerdings wenig erfolgreiche Karriere als Solokünstler gestartet. Unterstützt von seiner kongenialen Country-Gitarre hatte er wunderschön elegische Melodien und ungemein tiefgründige Texte wie "*Julian Cope is dead. I shot him in the head*" geschrieben, doch kommerzieller Erfolg, und schlimmer noch, wahre gern Namen nieß, war eine außergewöhnliche Erscheinung. Als Maler, Graphiker und Comiczeichner hatte er es schon in jungen Jahren zu einem ansehentlichen Vermögen gebracht, das er jedoch sehr bald wieder ausgab. Dem Bankrott nahe, hatte er sich einer anderen Begabung besonnen, und war Gitarrist, zunächst bei **Zodiac Mindwarp**, später bei **Brilliant** geworden. Doch seine Musikerlaufbahn war alles andere als glänzend verlaufen und so hatte er sich mit dem bißchen Geld, das ihm noch geblieben war, sein ganz persönliches Traumschloß *TRANCENTRAL* gekauft, einen Umschlag- und Tummelplatz für ausgefallene Ideen und Projekte, in dem er seither mit seiner Herzensdame Cressida residierte. Jimmy schien Bill der richtige Ansprechpartner für uralten babylonischen Geheimbund aus.

"*Rap, Scratch and Rhyme*" – so lautete der Schlachtruf, mit dem sie kurze Zeit später auszogen, um Schallplattenland zu erobern. Rockman Rock und King Boy D schnappten sich den erstbesten Sampler, dessen sie habhaft werden konnten, liehen sich bei Freunden einen Roland 08/15-Drumcomputer und machten sich auf den Weg ins nächstgelegene Aufnahmestudio.

2 Wochen später erschien die erste Single des dynamischen Duos: "*All You Need is Love*", veröffentlicht auf ihrem eigenen ***KLF** Communications*-Label. Basierend auf King Boy Ds schicksalhaften Neujahrsmorgen-Rap und musikalisch irgendwo zwischen den **Fab Four** und **Fab Five Freddy**

KLF



Ingomar KIESERITZKY, Der Schriftsteller als Katastrophen-chronist

Die Polkappen schmelzen, der Regenwald stirbt, das Ozonloch wird größer. Wen beträfe die nahende Apokalypse nicht ? Ingomar von Kieseritzky zum Beispiel. Kein Herz für verendende Robbenbabies, dafür ein großes für private Überlebensstrategien und die eigene Pathogenese



Foto: Iselde Ohlbaum



MUSICBOX

"Einmal gingen wir um einen See spazieren. Wir konnten kaum noch sprechen. Ein Herr mit einem Hund erschien. Ich machte einen Sprechakt und sagte: Schau mal, ein Dalmatiner. Alter Rassist, sagte Anna M.
Das waren so unsere Unterhaltungen (Aus: "Das Buch der Desaster")
Wieviel Unglück kann ein Mensch ertragen? Kieseritzky sagt: eine ganze Menge. Schweißfusse und scheißende Möwen als Fallbeispiele für eine Systematik der Kalamitäten.
Seit 1967 arbeitet der "auf den Kopf gestellte Optimist" an einer erinnernden Totalrückschau über seine persönlichen Miniaturdebakel. Betätigt sich als verbissener Katastrophenchronist, kreiert desastrose Szenarien, randvoll mit zerrütteten Existenzen, die schon alles durchgemacht haben.
8 Bücher und unzählige Hörspiele sind es bislang, in denen das Hohelied auf die Genüsse der Hypochondrie, auf den zartbitteren Geschmack penibel ausdifferenzierter Neurosen und auf die Wollust quälender Liebesobsessionen gesungen wird.
Kieseritzkys Texte oszillieren zwischen seriösen Wissenschaftsfragmenten ("Es gibt x Fremdwörter, die einen Sachverhalt einfach präziser prädizieren"), veredelten Trivialitäten und detailverliebten Obszönitäten. Eine zielsichere Gratwanderung zwischen teutonischem Tiefsinn und dessen lustvoller Denunziation. So sicher, daß sich die souveräne Komik fast von selbst einstellt. Denn Kieseritzky weiß genau um die tiefe Verwandtschaft von existentieller Lächerlichkeit und bitteren Wahrheiten. "Gerade die Herstellung einer Ordnung hat innerhalb dieser absoluten Unberechenbarkeit und Unkalkulierbarkeit des Lebens etwas rührend Komisches. Ich suche mir Lebensmodelle aus und staffiere sie so aus, daß sie ins Unglück stürzen müssen. Weil ich mir Themen suche, wo das Chaos doch gewissermaßen programmiert ist. Ob das nun Liebe oder Krankheit ist. Eben das, wofür man nun wirklich nicht selbst was kann, wovon man nicht sagen kann: du hättest deine Geschichte besser machen sollen."

Als "narrativer Bediener der Chaostheorie" läßt Kieseritzky seine Figuren immer wieder an ähnlichen Symptomen erkranken- egal ob sie nun als erfolglose Hundezüchter, Schürzenjäger oder psychiatrierte Mörder ihr Dasein fristen. ("Die Desaster, vorläufige Reihenfolge: Das Lebensgefühl, ein Verlust. Psychopompos und andere Schadensabwicklungen. Mamachens Karzinom. Die Universaltherapie, die gesunde Geschäftsidee." (Aus: Das Buch der Desaster).
Ab und zu organisch verkrüppelt, oft mit chemischen Keulen notdürftig ruhiggestellt, immer aber auf's Schwerste derangiert. Zentraler psychosomatischer Defekt: die Liebesobsession.
"Die Liebesobsession ist die kompletteste und gleichzeitig am schwersten durchschaubare Obsession des Menschen."

"Wollte mich mit flatternden Nerven auf ihren Mund stürzen, dachte gottlob rechtzeitig an meine faulige Flora in der F... se, und das hielt m... Schönes ...

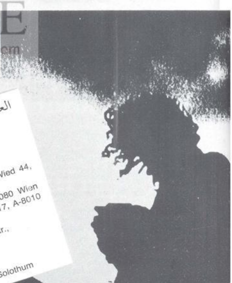
... Sc... ich... Pro... Küns... Aber ... nicht ... ohne Un... nachträg... Wie konnt... man?
Verzweife... des maroden ... amourösen Er... durchforstet, ... wird auf's Neue klassifiziert und rubriziert: Extremes Harmoniebedürfnis! Rückwärtsgewandte Eifersucht! Lebensangst!

ETAPPE, 1990, Postfach 30 30 44, 5300 Bonn
DER PFAHL, 1990, Matthes/Seitz
DIE PHILOSOPHIN, 1990, Schwärzlocherstr. 104 b
7400 Tübingen
DIE RÜBE, 1990, Haffmanns
SALBADER, 1990, Spanheimstr. 11, 1000 Berlin 65
ZEICHEN UND WUNDER, 1990, Berkmann, Leiden Wied 44,
6500 Mainz
SOLANDE, 1990, Zaunen, Schmidgasse 16/11, A-1080 Wien
AUF, UND, DAVON, 1990, Palais Attems, Sackstr. 17, A-8010
Graz
ESELSOHREN, 1990, Verlagsbuchhandlung Acherstr.,
Postfach 106, DDR-1040 Berlin
Kultur UND KRITIK, 1990, Caysa, Henricistr. 35,
DDR- 7033 Leipzig
ZÜNDSCHRIFT, 1990, Postfach 1210, CH-4502 Solothum

العناوين :

Am Ende ist alles für die Katz, denn nach Murphys Gesetz tritt immer das Schlimmste ein. Gescheiterte Existenzen?
"Sie scheitern natürlich, aber die Finali sind doch eher ein bißchen unbeklagter und unspektakulärer. Sie versanden einfach, hören auf und resignieren."
Eine post- postmoderne Übelkeit: alles probiert, nichts geschmeckt. Alle Lebensentwürfe einwandfrei gescheitert. Viel Schmerzen, wenig Hoffnung. Ein apokapokalyptisch verdüstertes Panoptikum und kein Land in Sicht. Schuld daran sind wir alle, insbesondere aber Nahrungsmittelfirmen, Psychopharmakakonzerne (gereiht nach toxischer Hierarchie), die Eltern und die Geisteswissenschaftler.

"Friedbert hat mir sein Federmesser vermacht, mit dem er seine Bibel tranchiert hat; braucht sie nicht mehr, weil er konvertiert ist. Gott sieht und hört nix, sagte er, Schluß mit ihm. Schleife täglich das Federmesser, die Klinge wird immer schärfer und dünner. Die Schleifbewegung sieht aus wie das manual work beim Onanieren. Was bin ich scharf auf Laura. Beten, sagt Friedbert. Ohne mich.
Herr von Kieseritzky, sind Sie zynisch ?
"Sagen wir es lammfromm: ich fürchte."



„Waiting ..."
Jimmy Cauty and Bill Drummond

ألوان وحروف الرسام مهدي قطبي

بول بالتا



الرسام مهدي قطبي في حديث مع باول بالتا صاحب هذا المقال

قد صاحب نشاطات السَّانْسِيمُونِيِّين والحملات الاستعمارية في القرن التاسع عشر اكتشاف الرسّامين الأوروبيين للمشرق العربي والمغرب. واكتشف أولئك الرسّامون قوّة الضوء في تلك البلاد، فازدادت ألوانهم بريقاً وحرارة. ثمّ نقلوا إلى البلاد الإسلامية العربية طريقة الرسم على الحامل، وهو مسند اللوح أو قماشة الرسّام، ولم تكن هذه الطريقة معروفة هناك، إذ كانت لبلاد الشرق وشمال إفريقيا طرائقها الخاصّة في الرسم. ثمّ سافر باول كليه إلى تونس فراعه ما رأى فيها من جمال الخطّ العربي، فكان مع غيره من الفنّانين الواسطة في أن اهتمّت المدارس الأوروبية بالحروف العربية والخطوط اهتماماً كان في البداية ضئيلاً، ثمّ نما شيئاً فشيئاً.

ثمّ بدأ الفنّانون الشرقيون أنفسهم، عرباً وإيرانيين، يحتذون حذو الفنّانين المستشرقين، ومن بعدهم الانطباعيين، فالتكعيبيّين، فالتعبيريين. وهكذا صعد في أواخر الأربعينات جيل جديد من الفنّانين الشرقيين نجحوا في خلق أسلوب خاصّ، إذ هم نجحوا في التوفيق بين فنّهم التقليدي والفنّ الأوروبي، فعمدوا إلى الرسم، رسم الحرف والكلمة، بل العبارة المفيدة على اللوحات.

وبمرور السنين، ذاع صيت هؤلاء الفنّانين الروّاد أمثال العراقي جميل حمودي، والإيراني حسين زندوري، وصار لهم في العالم الإسلامي أتباع ومدارس. ومن جهة أخرى، انتقل الشغف بالحرف والعلامة إلى طائفة من الفنّانين في البلاد الواقعة على الشاطئ الشمالي من البحر المتوسّط. فكانت تلك صورة من التفاعل الذي لم ينقطع قطّ بين الشرق والغرب.

في هذا السياق أذكر مهدي قطبي، فهو من أولئك الفنّانين الذين أشرت إليهم، لكنّه من جيلهم الجديد، من الجيل الثالث لما يسمّى برسّامي العلامة. وسيرته فريدة حقّاً، وهي أيضا نموذجية. فهو في الأربعين تماماً، وُلد بالرباط في 1951 ونشأ في عائلة متواضعة الحال. ولكنّ هذا لا يعني في الحياة شيئاً، فربَّ قارئ وكاتب لا يحمل من الثقافة شيئاً، وربّ أميّ يحمل منها كنوزاً كوالدة هذا الفنّان النسّاجة، تنسج السجّاد فتساهم في استدامة الفنّ العربي البربري برموزه المأخوذة من الحياة اليومية من غابر العصور، المتناقلة عبر الأجيال. فهل تأثر مهدي بهذا الفنّ؟ وهل كان على شعور بأنّه تأثّر به؟ سوف يدرك بعد زمن أنّ صنعة أمّه النسّاجة هي التي عززت فيه حبّه للتصوير والرسم.

شهد، وهو في الخامسة عشرة، معرضاً لجلالي غرباوي وهو رسّام متوثّر بالهولنديين والتعبيريين الألمان، فشعر مهدي لأوّل مرّة بحرارة رغبةٍ عنيفة تدعوه إلى الرسم. وتعرّف الفتى إلى غرباوي بقوله: «أنا مثلك رسّام». فطلب إليه غرباوي أن يطلعه على بعض ما رسم. ولم يكن الفتى رسم شيئاً بعدُ؛ فانهمك في العمل وأنتج في وقت وجيز رسمين صغيرين أعجبا غرباوي فشجّعه على الرسم ونصحه بالمثابرة، فكانت تلك بداية أمر فنّانٍ موهوب.

غادر قطبي المغرب في 1968 مغادرة المراهق عائلته عندما يخرج لاكتشاف العالم. وكان قطبي شديد الطموح،



مهدي قطبي، «الرعشة»،
زيت على كتاف، 1987
100x80

حريصا على الشهرة، مشفقاً من أن يعيش مجهولاً. وصل تولوز التي هي، كمرّاكش، مدينة حمراء، وسجّل نفسه في كلّية الفنون الجميلة وتدرّب فيها على الفنّ التشكيلي. وكان أصغر الطلّاب الفائزين بشهادة الفنون الجميلة. ودفعه طموحه إلى محاولة الاندماج في الجوّ الفنّي الفرنسي، فقصد باريس، وهو شابٌ متّقد النشاط، ذكيّ القلب، مشغوفٌ بالمعرفة.

ثمّ إنّه يراجع نفسه في تلك الفترة من حياته. الحنين يجذبه إلى المغرب ويدعوه إليه، لكنّ الشاب يأبى إلاّ أن يؤجّل العودة إلى مابعد الفوز. وهو منغمس في الوسط



مهدي قطبي، «التقاء بجيرار سينجر»، 1990 ألوان مائية وحبر، 65x50

الفرنسي، معايشٌ للمسيحيين ولليهود ولمن لا يؤمن بالله، فخشي الشاب المسلم أن يصير في هذا الوسط شخصاً مجهولاً أو كالمجهول، فجدّ في البحث عن جذوره، ومالبث أن وجد طريقه. فيا لَقدرة الذاكرة على استخراج المنسيّات وصهرها: استعادت ذاكرته الحروف العربية التي كان يخطّها في الصبا على كراريسه بغير مهارة. إنّها الحروف نفسها التي تتّخذ شكلها المتقن على يدالخطّاط فتتبدّى في النقوش على جدران المساجد والقصور، وعلى البيبان مجرّدةً، محبوكة الشكل، رائعةً، وهكذا وجد مهدي قطبي في الخطّ العربي وطنه الفكري ومستقرّه النفسي.

وحدثت المعجزة الفنّية: أخذت الحروف ترقص في ذهن الفنّان وتدور، وأخذ هو يحوّلها إلى موادّ لصنعته، موادّ بمثابة الصوف عند النساجة، والطين عند الفاخوري البربري، والجبس عند صانع الزخرفة. ولم يشعر قطبي بتمزّقٍ داخلي كثير أو قليل عندما أزوج بين طريقتين فنّيتين، ومنهجين تقليديّين، وثقافتين، وعالمين، بل بين حضارتين، وكان الزواج سعيداً موفّقاً.

وضمّ قطبي، بكلّ أصالة، تيّارات أخرى إلى فنّه. فقد احتفظ بالحرف، لكنّه لم يأخذ منه إلاّ شكله وهندسته، وأهمل معناه الأصلي. فصار الحرف أساس لوحات قطبي وروحها، لكنّه حرفٌ متحرّر، مستقلّ بنفسه، قائم بذاته. ولم يعد قطبي يخطّ الحروف بالقلم وإنّما يرسمها بالفرشاة. وقد قال لي مرّةً، وهو يبتسم ابتسامة عريضة: «القلم يحفر، أمّا الفرشاة فتمسّح وتدلّل. والحرف المرسوم بالفرشاة هو النقطة التي تلتقي فيها حضارتي والحضارة الغربية».

وقال: «أردت أن أنزع من خطّي خصائص الحرف المقروءة ليتسنّى لي ابتداع لغة لا تحدّها حدود، يفهمها جميع الناس، فهي واضحة أكثر منها مقروءة، يرقبها العربي وغير العربي بمنظار واحد ويكونان أمامها متساويين». وقطبي ينتقل من الخاصّ إلى العام، ولذلك أراه فنّاناً معاصراً متجهاً إلى المستقبل، لا رجلاً من رجال الماضي عائشاً في عصرنا. فقد استوعب الفكر العصري وفهمه كما ينبغي أن يفهم: قائماً على التجديد والابتكار والتفتّح للعالم وللمستقبل.

تكرّر موضوع عدّة مرّات في أعمال قطبي، يظهر بالأبيض والأسود على الشكل التالي:

كتابةٌ سريعة ومهملة على جانبي اللوحة تحدُّ في الوسط شكلاً على كامل الطول مكوّناً من حروف متراصّة كأنّها نقاط، ويتّخذ هذا الشكل هيئة مختلفة بعض الاختلاف من لوحةٍ إلى لوحة، ويوحي بأشياء مختلفة: فتخاله جسم امرأة قد التصق بفستان من حرير، أو مجرى نهر بين ضفّتيه، أو جُرّة سفينة في البحر، أو حتّى المجرّة بنجومها. تراه على هذا النحو أو ذاك على حسب اللون الطاغي، إن كان أحمر قانياً، أو أحمر ضارباً إلى البنفسجي، أو أزرق، أو أخضر، أو لوناً متموّج اللّمعان. وقد اتّخذ قطبي «الرعشة» عنواناً لإحدى لوحاته. فعمله، كما ترى، يشبع العين والخيال...

أكثـــر من ثلاثـــين ألف قطعـــة نقـديـة إسلامية قيد البحث العلمي

جامعة توبنغن تنكبّ على دراسة كنز إسلامي عظيم

ريغينه غروس

كان الاهتمام كبيراً في ألمانيا بعلم المسكوكات الإسلامية، قد ظهر في القرن الثامن عشر، ثم نما هذا الاهتمام في القرن التاسع عشر بنموّ علم الدراسات الشرقية والإسلامية. وقد كانت مجموعات كبيرة من المسكوكات الإسلامية موجودة وقتذاك في ألمانيا، منها المجموعة التي كانت في جامعة يينا، ومجموعة كانت في برلين ضمن «المجموعات الملكية». وامتلكت جامعة توبنغن، هي الأخرى، في عام 1867 مجموعة من المسكوكات الإسلامية صغيرةً، اشتملت على نحو خمسمائة قطعة.

انكبّ العلماء في البداية بحماس على دراسة تلك المجموعات، ونشروا فيها أبحاثا كثيرة. إلاّ أنّ طبيعة المجموعات لم تشجّع على التعمق في البحث والتحليل. فتلك المجموعات - وحتّى الكبيرتان منها - كانت شديدة التنوع والاختلاط، ليست فيها أعداد كافية من القطع النقدية ذات العلاقة المترابطة، إنّما هي شتات من بلاد متباينة وأزمنة متباعدة. فلا يخرج الباحث بعد دراستها بنتائج علمية رصينة. ثم أخذ الاهتمام بدراسة المسكوكات الإسلامية يضعف ويتلاشى في أواخر القرن التاسع عشر حتّى أنّ جامعات كبيرة، كجامعة يينا وجامعة برلين، لم تتحرج في الاستغناء عن وظيفة القائمين على تلك المجموعات.

وظلّت مجموعة المسكوكات الإسلامية في توبنغن - حتى العام قبل الماضي - كما هي، لاتزيد على الخمسمائة قطعة المذكورة. ولم تكن سوى جزءاً متواضعا من المجموعة الضخمة من المسكوكات التي اشتهرت بها الجامعة.

لكنّ الوضع قد تغيّر، وصارت توبنغن الآن ذات شأن عالمي في علم المسكوكات الإسلامية. ذلك أنّ ستيفان ألبوم، وهو من كاليفورنيا، مختص بالدراسات الإيرانية، قد جمع أثناء سنين كثيرة عدداً هائلاً من المسكوكات. وبلغ شغف ستيفان ألبوم بالمسكوكات أن اتّجر بها حتّى يوفر لنفسه منها عددا كافيا لدراسته العلمية. وأخيرا بات له أجود مجموعة من المسكوكات الإسلامية وأوسعها، احتوت ثلاثين ألف قطعة، فباعها لجامعة توبنغن.

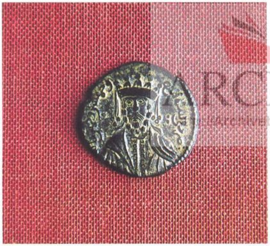
وساهم ستيفان ألبوم في فهرسة قطع هذا الكنز الثمين، فكان عملاً لعدّة شهور أظهر القيمة العلمية لهذه المجموعة الضخمة. وإنّما أبرز الأوجه في قيمة المجموعة هذه هو أنّ قطعها قد جاءت متسلسلة من زمن بداية سكّ النقود العربية إلى العصور التي أصبح فيها ضرب النقود آليا، أي في نحو 1700 في منطقة النفوذ العثماني، وفي حوالي 1870 في إيران. والملاحظ أنّ هذه المجموعة القيمة تحوى مسكوكات من كلّ العصور ومن كلّ دور السكة الإسلامية، كما تحوي قطعا قد أعيد ضربها في دور مسيحية، منها دار السكّة بمدينة دورلاخ الواقعة على نهر الراين. فهذه المجموعة المتكاملة بصورة تكاد تكون شاملة، تمكّن الباحثين من متابعة فترات زمنية طويلة، وتعطي المادة لمقابلة المناطق المختلفة ومقارنة بعضها ببعض. ففي هذه المجموعة مثلا، نحوُ خمسمائة قطعة مضروبة في سمرقند، تتسلسل تواريخها من 193 إلى 1020 هجرياً. وما من شك في أنّ قطعا كهذه تجعلك تقف على دقائق تاريخ سمرقند وأخبار حكّامها في تلك الفترة الطويلة. ونحن نعلم ما يجد المؤرخ من فائدة جمّة في دراسة المسكوكات الإسلامية، بل لعلّه لا يجد مستندا سواها في كثير من الأحيان، وقد ضاع ما ضاع من الوثائق الإسلامية والمراجع في مناطق عديدة. ولحسن الحظ، نجد



عملة المرابطين والمحّدين الذهبية صارت منذ منتصف القرن الثالث عشر قدوة للأوروبيين في ضرب العملة. في الصورة دينارٌ من عهد الخليفة أبي زكريا يحيى، 1226-1235



من آخر ما ضرب العرب في الأندلس: درهمٌ من عهد علي النصري أمير غرناطة، 1464-1485



درهمٌ من أولى الدراهم المغولية، ضُرب في تفليس في 1243-1244

أنّ المسلمين كانوا، إذا سكّوا النقد، لا يبخلون بالعبارة والأرقام. فمن القطع ماعليه سبعون كلمة، وثمانون كلمة، بل مائتا كلمة أحيانا. وبصورة عامة، تحمل قطعة النقد الإسلامية اسم دار السكّة، وعام الضرب. أمّا المسكوكات الأوروبية، فهي، وإن حملت اسم دار السكة، لم تذكر عام الضرب إلاّ في نهاية العصور الوسطى، ولم تذكره إلاّ على نحو متقطّع، غير مطّرد. ونقرأ دائما عبارة دينية على المسكوكة الإسلامية التي ضربت قبل العهد العثماني. ثم أُهملت هذه العادة العربية في كامل العالم الإسلامي بتوسّع الدولة العثمانية، حتى كادت تضمحل. أمّا العبارات الدينية الأكثر شيوعا فكانت الشهادتين والبسملة، ونجد مسكوكة ذهبية سلجوقية من أواسط آسيا عليها أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون.

كما نقرأ على المسكوكة الإسلامية اسم الحاكم، واسم الخليفة الذي يُدعى له في صلاة الجمعة. وهكذا تعطينا المسكوكات معلومات مفصلة ودقيقة عن الفتن، مثلا، وما يصحبها من تغيّرات. وتعطينا معلومات صادقة عن أسماء أصحاب الأمر ومناطق نفوذهم. فقد كان هؤلاء يحرصون على أن تأتي أسماؤهم على القطع النقدية حرصَهم على أن تُذكر أسماؤهم في صلاة الجمعة. وهكذا نقرأ، مثلا، على مسكوكة من شمال إيران مضروبة في أواخر القرن العاشر اسم الخليفة العبّاسي وأسماء من دونه من أولي الأمر. أمّا طريقة البحث والترتيب التي تعمد إليها جامعة توبنغن في دراسة هذه المجموعة الضخمة، فستكون في البداية عملاً أساسيا عاما يهيّئ للأعمال التفصيلية. وقد أُنشئت وظيفة في الجامعة خاصة بهذا العمل، هي «مركز البحث في علم المسكوكات الإسلامية». ويريد هذا المركز أن ينشر نتائج دراساته في 31 مجلّدا، ومن المقرر أن يبدأ النشر بمسكوكات إسبانيا والمغرب، ثم إفريقية،



دينار فضّي من جرجان (إيران) من عهد الإيلخان أولجايتو من عام 1313-1314



درهمٌ من شيراز من عام 1018 تظهر فيه درجة الأناقة التي بلغها الفنّ الإسلامي

وصقلية، ومصر، وجزيرة العرب، وشرق إفريقيا، إلى غيرها من البلاد الإسلامية. وستخصّص المجلدات 26 إلى 29 لخراسان. أمّا المجلد الثلاثون، فسيخصّص لسنغستان والسند والهند. كما سينشر «مركز البحث في علم المسكوكات الإسلامية» بجامعة توبنغن مقالات علمية يلخّص فيها ما اكتسبه من معلومات جديدة أثناء دراسته لهذه المجموعة الضخمة من المسكوكات.

وسيكون لهذا المشروع نتاج آخر، وهو أنّ مركز البحث



صورة الأمير الأرتقي قرا أرسلان على قطعة نقدية من حصن كيفا الواقع على دجلة تعود إلى عام 1164 . وقد ظهرت الصور على مسكوكات شمال الجزيرة في القرن الثاني عشر

المذكور عازم على إعداد قوائم للحكّام على حسب المدن التي حكموها. ولاشك في أنّ المهتمين بالدراسات الإسلامية سوف يستفيدون من هذه القوائم التي ستكمّل ماهو متوفّر الآن من قوائم الخلفاء والسلاطين في السلالات المختلفة.

ونذكر أيضا من المهمّات التي سينجزها المركز المذكور: إعداد جدول بكل مجموعات المسكوكات الإسلامية التي تملكها المؤسسات العامة في ألمانيا والنمسا وسويسرا، وبيان حجم هذه المجموعات وأصولها وتاريخها، وتقدير أهمّيتها. كما يعمل هذا المركز على إعداد عدد هائل من الشرائح المصوّرة، ستبلغ ألفي صورة لمسكوكات هذه المجموعة، ستُستخدم في التدريس وفي العروض الإعلامية لنشاطات المركز.

وقد اتُّفق على أن تعقد مؤتمرات مرّة كل سنتين لمعالجة المواضيع الخاصة بعلم المسكوكات الإسلامية وما اتّصل بهذا العلم من التخصصات. ونشير ها هنا إلى أنّ دراسة المسكوكات الإسلامية سترجع بفوائد جمّة على طائفة من التخصّصات المتّصلة بالدراسات الإسلامية.

سوف يُعقد أوّل هذه المؤتمرات في 1992 . أمّا موضوعه فهو محدّد من الآن: تداول العملة الإسلامية وانتشارها خارج العالم الإسلامي، ثمّ تداول العملة غير الإسلامية في العالم الإسلامي. ●

رودولف فيرشوف:

«السياسة هي الطب على صعيد أوسع»

مانفريد فاسولد

يُعـدّ فيرشوف من الممثلين للتراث الليبرالي والديمقراطي. كان طبيبا ورجل سياسة ذا صيت عالمي، قضى نصفا من سنيّ عمـره الثمانين عضوا في المجلس البلدي بمدينة برلين، ووقتاً لا يقلّ كثيرا في البرلمان البروسي، وثلاثة عشر عاما في برلمان الرايخ الألماني. كان كاتبا طرق شتّى مجالات العلم وحرّر حوالى ثلاثة آلاف من الكتب والمقالات.

كان فيرشوف من الأطباء المعترف ببراعتهم، وهو لم يتجاوز بعدُ السادسة والعشرين، وكان حسن الصيت في البلاط البروسي، فلما جاء الخبر إلى برلين في عام 1848 بأنّ وباء فظيعا قد تفشّى في مقاطعة شليزيا، أرسلت وزارة الدولة البروسية فيرشوف إلى هناك. لدينا معلومات وافية عن تلك الرحلة، فقد ترك فيرشوف تقريرا طويلا مفصّلا عن منطقة شليزيا العليا وسكّان ريفها، لم يكتف فيه بالعرض لانتشار التيفوس وقتذاك، وإنّما وصف فيه مساكن الناس التعسة وطعامهم.

رأى فيرشوف ناسا «يمشون حفاة على الثلج والجليد»، «وأطفالا حفاة يسعون على الطرقات الريفية المتجمّدة ساحبين أقدامهم التي تورّمت بالأوذيما في الأوحال المثلجة». تلك صورةٌ من ألمانيا في عام 1848، والتقرير الذي قدّمه فيرشوف عن شليزيا العليا في برلين «لم يكن تقريرا علميا وإنّما عريضة هاجم فيها البيروقراطية وكبار الملاك»، كما كتب تيودور هويس في دراسة صغيرة حول فيرشوف.

على أنّ فيرشوف لم يهاجم البيروقراطية البروسية والإقطاع الشليزي وحدهما، وإنّما حمّل الكنيسة الكاثوليكية مسؤولية تلك الأوضاع الفظيعة التي أتلفت من الأرواح في شليزيا العليا ما تتلفه عادةً الحروب الصغيرة. ورأى فيرشوف الحلّ في «إدخال التعليم الذي يولّد أحوال الحرية والرخاء، وفي إعادة تنظيم الهياكل الأساسية في شليزيا العليا على أساس وطني، كذلك في فصل التعليم عن الكنيسة، وفي إقرار ديمقراطية غير محدودة وحكم ذاتي على صعيد الدولة والبلدية».

وفي أواخر شتاء العام 1848، شهد فيرشوف في شليزيا العليا تأزّم الموقف الذي أدّى إلى اندلاع ثورة مارس. والحقيقة أنّ الأزمة قد بلغت وقتذاك ذروتها. وعندما رجع إلى برلين وجد الثوّار قد بدءوا يرفعون الحواجز. اندلعت المعارك في الشوارع، فساهم فيها فيرشوف بنفسه، ووقف وراء المتاريس، بالقرب من مستشفى «شاريتيه» حاملا مسدسا. وكان بيسمارك وقتذاك وصف الذين أقاموا الحواجز وقاتلوا بأنّهم «قتلة»، بينما يرى فيرشوف نفسه «رجلا ديمقراطيا واشتراكيا»، كما كتب في رسالة لأبيه في تلك الأيّام.

ولد فيرشوف في 13 أكتوبر 1821 في بلدة شيفلباين على نهر ريغا في مقاطعة بومر. وكان أبوه فلاحا ذكيا، لكن قليل التوفيق، عمل أحيانا أمينا لخزانة البلدية. ولا نعرف عن والدة فيرشوف كثيرا، وكان ابنها الوحيد. ويبدو أنّه نشأ متعطّشا للمعرفة، وقد قلّب وهو طفل في كتب أبيه.

نجح فيرشوف في عام 1839 في امتحان الشهادة الثانوية، وباشر في خريف تلك السنة دراسة الطب في برلين. وكان مقيما في «بيبنير»، وهي مدرسة داخلية لطلبة الطب، أسّسها فريدريش - فيلهلم الثاني لتكون منشأة تنفق عليها الدولة، ويُعَدّ فيها الطلبة الموهوبون ليكونوا جراحين في الجيش. ولم يُقبل فيرشوف إلّا بفضل علاماته الجيّدة في هذه المدرسة الداخلية التي كان يخضع تلاميذها لنظام صارم. وكانت دراسة الطب آنذاك يغلب عليها الطابع النظري، كانت «دراسة كتب ومراجع»، كما كان يشكو



فيرشوف، رجل السياسة والطبّ

هيرمان هيلمهولتس الذي كان رفيقا لفيرشوف في تلك المدرسة.

حصل فيرشوف في 1843 على الدكتوراه في الطب والجراحة، وعُيّن جراحاً في مستشفى «شاريتيه»، وعُهد إليه هناك بعد وقت قصير، بإدارة صالة الجثث. وكُلّف في 1845 ـ لسعة معارفه ـ بإلقاء كلمة الاحتفال في العيد الخمسين لتأسيس «بيبنير». وكانت كلمته تلك حدثا مشهودا: فقد ظهر فيها مظهر العالم العصري الذي أدار ظهره للطب التخميني، كما كان في العهد الرومنتيكي، وطالب بطبّ يقوم على الفحص والدراسة التجريبية للمرضى، وعلى إجراء التجارب، وتقويم نتائج التشريح. وقد حيّى الحضور كلمته تلك بتصفيق حار.

ثم كلف روبرت فروريب، وهو خبير بعلم الأمراض، الدكتور فيرشوف بدراسة انسداد الشرايين دراسة تجريبية، ففعل فيرشوف، وكتب نتائج أبحاثه في تقريره حول «انسداد شريان الرئة» مستخدما لأوّل مرّة مصطلحي «الانسداد والجلطة». ولم يكد فيرشوف يفرغ من هذا التقرير حتى بدأ في بحث جديد: ذلك أنّه لاحظ أثناء تشريح إحدى الجثث أنّ لون دمها كان فاتحاً بصورة غير عادية، فسمى هذه الظاهرة المرضية لوكيميا، أي ابيضاض الدم. وكان من تقدّم هذا الطبيب الشاب أن اقترحه فروريب خليفة له عندما غادر مستشفى «شاريته» في ربيع 1846. وكان فيرشوف وقتذاك في الرابعة والعشرين، قد شرع يستعدّ للحصول على إجازة التدريس. ثمّ إنّ المحاضرات التي ألقاها فيرشوف في خلال تلك السنين والمقالات العلمية التي كتبها قد كثرت إلى حدّ أنّ المجلات ضاقت عن نشرها. وعلى كلّ حال، لم يكن فيرشوف، ولا صديقه بنورراينهارد، كثيري الاحتفال بمجلات عصرهما، فقررا تأسيس مجلّة علمية خاصّة هي «سجلات التشريح الباثولوجي والفسيولوجيا، وطب المستشفيات» التي طبع أوّل أعدادها في أول مايو 1847، وهي مجلّة مازالت تصدر إلى الآن.

وأدّت مساهمة فيرشوف في معارك الحواجز إلى جانب الثوّار في شهر مارس 1848 إلى إخطاره بترك الخدمة في المستشفى. ومع أنّ ذلك الإخطار قد ألغي فيما بعد، فإنّ فيرشوف فقد الشقّة التي كان يسكنها في مستشفى شاريتيه. وفي أكتوبر من ذلك العام، حققت القوى المعادية للثوّار انتصارات على كلّ الجبهات، فكتب فيرشوف إلى أحد أصدقائه، وقد ملك اليأس عليه أمره: «ماعلى الذي يريد سياسة نزيهة وتقدّما حقيقيا إلاّ أن يغادر القارة الأوروبية عامّة».

وإنّ فيرشوف لفي ذلك الجوّ المقبض إذ وردت إليه رسالة من مجلس الجامعة التي بمدينة فورتسبورغ، فيها أنّهم قد تنبّهوا له، بل وقفوا بإعجاب على كتاباته «الواضحة العرض، الدالة على علم راسخ». ودامت المفاوضات مع الجامعة بعض الوقت، ولم يكن بدٌّ لفيرشوف من أن يتعهّد لدولة بافاريا بألاّ يحوّل جامعة فورتسبورغ إلى «مرتع لميوله المتطرفة التي أبداها في الماضي».

تحوّل فيرشوف في أواخر نوفمبر 1848 إلى فورتسبورغ، وهو في الثامنة والعشرين، تحوّل إليها وحده ثمّ التحقت به خطيبته روزه ماير بعد زواجهما في العام التالي. وولد ثلاثة من أطفالهما الستّة في فورتسبورغ. وبعد وصوله، كتب فيرشوف إلى أبيه: «ها قد أصبحتُ في آخر الأمر أستاذا معروفا في منصب أمين في هذه المدينة السعيدة الواقعة على نهر الماين. وقد باشرت اليوم عملي في مستشفى «يوليوس»، وسأشرع في إلقاء المحاضرات يوم الاثنين».

وكان الجمع غفيرا عندما ألقى محاضرته الأولى، وفي مساء اليوم نفسه كان فيرشوف من بين الذين أسّسوا «جمعية الطب الفيزيائي».

وعلاوة على هذا، فقد انتُخب فورا سكرتيرا أوّلا لهذه الجمعية العلمية الجديدة، وعُيّن منذ البداية عضواً في لجنة التحرير التابعة لها. وليس من الصدفة أنّ فيرشوف كان المحرر لأوّل مقال صدر في العدد الأوّل من مجلة «مداولات جمعية الطب الفيزيائي». ونشير، تنبيها إلى شأن هذه الجمعية، أنّ فيلهلم رونتغن، مكتشف أشعّة إكس، ألقى فيها، بعد نحو خمسين عاما، المحاضرة التي عرض فيها لأوّل مرّة اكتشافه الذي أدخل الطب في مرحلة جديدة.

كان الإقبال واسعا في فورتسبورغ على الأمسيات العلمية التي ألفت جمعية الطب الفيزيائي تنظيمها في مساء السبت من كلّ أسبوعين، وكان يشهدها الأعضاء، كما كان يسمح للطلاب بشهودها. قال إرنست هيكل عن تلك الأمسيات: «أكثر ما أعجبني منها هو الطريقة اللطيفة الخالية من كلّ أشكال التكلّف التي يعامل بها الأساتذة

بعضهم بعضا ويعاملون بها الآخرين. ومعاملة كهذه لا تخطر قطّ على بال الأساتذة ببرلين». وإرنست هيكل يتكلّم عن خبرة، فهو طالب في الطب قد درس في برلين من قبل، ثمّ صار مساعدا لفيرشوف يحضر دروسه وتمارينه، وقد ترك لنا عن أستاذه معلومات مفصّلة.

حاول إرنست هيكل في رسائل إلى والديه أن يصف فيرشوف أستاذاً وإنساناً، وهو الذي تربطه به معاملات يومية متّصلة. ويبدو أنّ فيرشوف كان وقتذاك ـ ومن بعدُ ـ يتّسم بالحصافة والهدوء. كتب هيكل: «إنّه يقابل كل شيء بهدوء رائع لا يعرف التأثّر وبموضوعية رصينة ورباطة جأش غير مألوفة، فاشتدّ إعجابي بهذه الخصال حتّى صرت أقدرها فيه تقديري لذكائه الفائق ومعرفته الغزيرة». وكتب هيكل واصفا محاضرات فيرشوف: «إنّها فريدة من نوعها... فبينما يتخلّف الطلاّب عادة عن المحاضرات الأخرى بصورة منتظمة، نراهم حريصين ما استطاعوا على أن لا يتغيّبوا عن محاضرة واحدة من محاضرات فيرشوف... ومحاضرات فيرشوف صعبة، لكنّها في غاية الروعة. وأنا لم أشهد قطّ محاضرة تعادلها في الجمع بين الإيجاز والمتانة وبراعة الاستنتاج وقوّة المنطق من جهة، والعرض الواضح والإلقاء الممتع من جهة أخرى».

وكان أدولف كوسماول معجبا، هو الآخر، بمحاضرات فيرشوف. وكوسماول هو من كبار الأطباء في التاريخ الألماني ومخترع مضخّة المعدة. وكان أنهى دراسة الطبّ عندما انتقل فيرشوف إلى فورتسبورغ، فتبعه إليها كوسماول لإعداد الدكتوراه. يقول: «كانت محاضرات فيرشوف وشروحه لا تضاهى، وكان يأتي كل يوم بالجديد والمجدي».

قضى فيرشوف سبع سنين في فورتسبورغ، قد شكّلت أوج نشاطه، نشر فيها كثيرا وبحث كثيرا. نقل طالبٌ في الطب أميركي أنّ النور يظلّ مولعا في مكتب فيرشوف إلى الثالثة صباحا في كثير من الأحيان، مع أنه تعوّد النهوض في السادسة. وألّف فيرشوف معظم كتابه الشهير «الباثولوجيا الخلوية» في مدينة فورتسبورغ. وقد كان نشر عام 1855 مقالا بهذا العنوان في مجلة «سجلات» التي انفرد بإدارتها بعد أن توفي صديقه راينهارد. ومع أنّ فيرشوف كان مرتاحا إلى الإقامة في فورتسبورغ، فإنّه كان يفكّر في العودة إلى برلين، خاصّة عندما اقترب ابنه من سن الإلزام، وكان فيرشوف ـ وهو بروتستانتي ـ يشفق من أن يرسله إلى مدارس فورتسبورغ الكاثوليكية. ولا شكّ في أنّ أسباباً أخرى حملت فيرشوف على مغادرة فورتسبورغ:

كان طموحا وفكّر في مستقبله، فرأى أنّ التقدّم الكبير الذي حقّقه الطبّ الألماني خليق أن يلفت نظر العالم، أوّل ما يلفته، إلى برلين التي تتهيّأ لتصير عاصمة ألمانيا. وهكذا استقبل برضى واسع الاستدعاء للأستاذية الذي ورد عليه من برلين تلك المدينة التي أكرهته الظروف على مغادرتها، وها هو يعود إليها مظفّرا مبجّلا.

ولم يكد فيرشوف يباشر التدريس حتى أقبل عليه أطباء وطلبة من شتّى البلدان يشهدون محاضراته. كتب الطبيب أوتو براوس في كتابه الذي يذكر فيه كبار الأطباء ببرلين: «كانت جميع الأمم ممثّلة في الجمهور الذي يشهد محاضرات فيرشوف، وكنّا كثيرا ما نسمعه يتحدّث مع الأطباء الأجانب بالفرنسية أو الإنكليزية أو الإيطالية».

كتب فيرشوف مرّة، وهو طبيب شاب: «السياسة هي الطبّ على صعيد أوسع»، فلمّا عاد إلى برلين أراد أن يمارس هذا النوع من الطبّ: انتُخب عام 1859 في برلمان مدينة برلين، ثمّ ساهم في يونيو 1861 في تأسيس حزب التقدّم الألماني الجديد، وهو حزب ليبرالي، معظم أعضائه من كبار الموظّفين والأساتذة والجامعيين ورجال الأعمال.

وانتخب فيرشوف، وهو منتم إلى هذا الحزب، عضوا في البرلمان البروسي في نفس الوقت تقريبا الذي تقلّد فيه أوتو فون بيسمارك منصب رئيس الوزراء البروسي. وكان الخلاف السياسي في بروسيا قائما عندئذ حول ترتيبات الجيش، فالملك كان يريد أن يجعله جيشا عصريا قويا. أما النّواب فخشوا أن يكون الملك يقصد بتسليح الجيش إلى استخدامه في المعارك الداخلية خاصّة. وهم فيلهلم الأول بالتنازل عن العرش، ثمّ بذل محاولة أخيرة للخروج من الأزمة بأن استدعى إلى منصب رئيس الوزراء رجلا مغامرا، على حد تعبير الملك، هو بيسمارك.

عُين بيسمارك إذن لينهي الخلاف الذي كان بين العرش والبرلمان، وما أسرع أن اكتشف بيسمارك «ثغرة» في الدستور ـ كما قال ـ فعمد إلى سدّها على طريقته الخاصّة. والثغرة هذه تتمثّل، كما شرح، في أنّ السلطة التنفيذية تشكّل القوة الحاسمة، طبقا للروح البروسية، وبما أنّ الحياة السياسية لا بدّ لها أن تستمرّ بطريقة أو

بأخرى، فإنّ الكلمة الأخيرة تكون للسلطة التنفيذية.

لم يكن البرلماني فيرشوف كبير الثقة برئيس الوزراء، ولم يكن ليتفهّم تأويلات بيسمارك الدستورية كثيرا أو قليلا. خطب فيرشوف في البرلمان فقال: «يزعمون في جرءة أنّ في الدستور ثغرة، ثمّ يستنتجون أنّ الحكومة محقّة أن تسد تلك الثغرة المزعومة كما تشاء». وقال في آخر كلمته تلك التي قُطعت عدّة مرّات بالتصفيق والهتاف: «ليس من مصدر القوة للملوك أن يعيشوا في خلاف وشقاق مع شعوبهم».

وأحسّ بيسمارك من هذا الكلام كأنّ الحزب الليبرالي يطالب بالمشاركة في السلطة. لكنّ بيسمارك لم يرد أن يتّخذه شريكا. وفي لجنة الميزانية التي شكّلها البرلمان ـ وكان فيه نواب مشهورون من الحزب الليبرالي، منهم فيرشوف، وقد بلغ الأربعين ـ في تلك اللجنة قال بيسمارك كلمته المشهورة: «إنّ أنظار ألمانيا ليست متّجهة إلى الليبرالية البروسية وإنّما إلى قوة بروسيا... وإنّ مسائل العصر الكبرى لا تُحسم بالخطب وقرارات الأغلبية ـ وكان هذا الخطأ العظيم في 1848 و 1849 ـ وإنّما تُحسم بالحديد وبالدم».

اغتاظ أعضاء اللجنة من كلمة بيسمارك واستنكروها، وكان أوّل المستنكرين فيرشوف الذي ردّ على بيسمارك قوله ردّاً عنيفا، متهمّا إياه بأنّه يريد أن يعالج الأزمة الداخلية بأن يدفع ببروسيا في سياسة خارجية تقوم على العنف والتسلّط. وكان فيرشوف مصيبا في تقديره، ففي السنوات التي تلت، دخلت بروسيا في عدة حروب: في 1864 ضدّ الدانمارك، وفي 1866 ضدّ النمسا، وفي 1870 ضدّ فرنسا.

فليس غريبا إذن أن تسير العلاقة بين فيرشوف وبيسمارك من سيّئ إلى أسوأ، حتّى كان أن طلب بيسمارك فيرشوف للمبارزة في يونيو 1865 بعد أن أنكر هذا بعض أقوال ذاك. وكان القانون في بروسيا منع المبارزة منذ عام 1794، لكنّ بيسمارك الذي كانت له خبرة في النزال لم يكترث بذلك المنع. أمّا فيرشوف، فرفض أن ينزل عند رغبة بيسمارك ذات الصبغة الإقطاعية.

وفي عام 1866، بعد الحرب المظفّرة ضدّ النمسا، طلبت الحكومة من البرلمان العفو عن خرقها للدستور في الماضي. وكانت أغلبية النواب ـ بنسبة ثلاثة لواحد ـ مستعدّة للتصريح بالعفو المطلوب، لكنّ أقلية يسارية ليبرالية، من بينها فيرشوف، رفضت طلب العفو الذي تقدّم به بيسمارك، ورأى فيرشوف أنّ السلطة التشريعية لا يجوز لها أن تعفو بجرّة قلم عن الحكومة بعد كلّ ما اقترفته هذه من خرق مستمرّ للدستور طيلة عدّة سنين.

كذلك لم يوافق فيرشوف على إنشاء «اتّحاد ألماني شمالي» وقال «إنّي في أشدّ القلق لهذا المشروع الذي يخرج من الوحدة قسما معينا من الدولة الألمانية». وقال إنه يخشى «أن يكون الألمان الجنوبيون قد تُركوا جانبا لأنّهم لا يستساغون، ولأنّ التطلع القوي إلى الحرّية، كما هو في الجنوب، عنصر لا يصلح أبدا لمشروع الدول الكبرى في شمال ألمانيا».

وكتب إدوارد غولد شتوك في يونيو 1867 من لندن إلى صديقه فيرشوف بعد معركة كونيغكريتس (التي هزمت



فيرشوف يسلّم على الملكة فكتوريا (في عام 1888)؛ وكلاهما معروف بنزعته الليبرالية

بروسيا فيها النمسا عام 1866) قلت هنا لأصدقائي : «إنّ أعظم انتصار حقّقه بيسمارك لا يتمثّل في هزم النمسا، وإنّما في البلبلة التي ستخلقها تلك المعركة في عقول أفضل السياسيين وفي الانشقاق الذي سيحدث في الحزب الليبرالي» وهذا ما حصل فعلا، فقد اختلف الليبراليون في هذه المسألة.

كان فيرشوف يبغض سياسة بيسمارك ويتقزّز منها، ويمقت من بيسمارك، أكثر ما كان يمقت، اشتراءه لضمائر الناس ورشوتهم وإفسادهم. وبدأ اهتمام فيرشوف منذ 1866 يتحوّل إلى السياسة الداخلية وإلى مجالات الإصلاحات بصورة خاصة. وكان فيرشوف أشدّ إحساسا من المحافظ بيسمارك بالتغيّرات الاقتصادية والتكنولوجية الكبرى في زمانه، وأبعد منه فطنة إلى ما نسميه اليوم بالثورة الصناعية. وفطن فيرشوف بصورة خاصة إلى أنّ تلك التغيرات الاقتصادية الجذرية الكبرى لا بدّ أن تكون مصحوبة بتغيرات في المجال الاجتماعي، لا تقلّ عنها عمقاً واتّساعا.

لمّا تحوّل فيرشوف بعائلته إلى برلين في 1856، كان سكّان المدينة 442 ألفا، ثمّ صاروا ثلاثة أمثال ذلك بعد ثلاثين سنة. وقد التحق ببرلين نحو 900 ألف من الناس في خلال ثلاثة عقود. فأمّا حاجات هؤلاء الناس المادية فقد «تغطّيها الشركات ودور الصناعة. ولكن، من يوفّر لهم الماء الصافي ومن يحرس على نقاوة الهواء؟ ثمّ كيف يتخلّص كلّ هؤلاء الناس من مخرجاتهم، أتنقل نقل القمامة، أم تصرّف في المجاري؟»

كانت هذه هي المشاكل التي اهتم فيرشوف بمعالجتها في السنوات اللاحقة، وكان عضوا في المجلس البلدي. وكان اهتمامه الأكبر في ذلك بالرعاية الصحّية، فتبين له بعد عميق الدرس أنّ مدينةً في حجم برلين تحتاج إلى نظامين للتخلّص من مخلّفاتها: نظام لنقل القمامة، وشبكة مجار لتصريف المياه الملوّثة، وهذا يتطلّب قدرا عاليا من المال، لم يكن أعضاء البلدية ولا سكّان برلين مستعدين في بداية الأمر لتوفيره.

فصار فيرشوف يعظم ويذكّر مغبّة الأمر. قال: «كلّ ثروات المدينة والدولة وكلّ شيء فيهما ذي خطورة وشأن إنّما مصدره في آخر الأمر هو عمل السكان. فهل خسارةٌ أفدح من خسارة حياة إنسان؟ أو ليست تشكّل كلّ وفاة شخص قادر على العمل خسارة مادية؟ أوليست تؤدّي كلّ حالة مرضية، تقعد عضوا منتجا في المجتمع عن العمل، إلى خسارة، يمكن حسابها بالعملة؟»

وجاء وباء التيفوس في عام 1872، ففقدت بروسيا من الأرواح ثلاثة أمثال ما فقدته في حربها مع فرنسا. ففطن أعضاء البلدية عندئذ إلى المسائل الصحية؛ وفي 1874 اقترضت المدينة ستة ملايين مارك ثمّ ثلاثين مليونا أخريات بعد سنتين، وأقامت محطّة جديدة لإعداد الماء، ومدّت شبكةً من المجاري. وكانت برلين قدوة، فلم يمض طويل وقت حتّى مدت المجاري في معظم المدن الألمانية الكبيرة.

ولم ينحصر نشاط فيرشوف في المجال الطبي والسياسة البلدية، وإنّما نجده، بعد 1870، قد اشتغل بمسائل كثيرة، كان من أحبّها إليه مسائل علم الآثار، وفي الإثنولوجيا، وفيما قبل التاريخ، وقد ساهم في تأسيس الفرع البرليني لجمعية ما قبل التاريخ، إضافة إلى أنه أصدر بعض المجلات ونشر عددا ضخما من المقالات العلمية.

وزعم بعضهم في ذلك الوقت أنّ علاقة قد تكون قائمة بين خصائص المرء النفسية والذهنية وبين عناصر جسدية خاصة بعرقه. وقد حذّر فيرشوف من مثل هذه الآراء السطحية، وخاصّة من أن يُنظَر إلى بعض الشعوب على أنها «دنيئة» و«أقلّ شأنا» من غيرها.

أمّا التيار المعادي للسامية، فواجهه فيرشوف في البرلمان البروسي بالبراهين العلمية. قال إنّه ليبدو أنّ كلّ عضو في الحزب المعادي للسامية يخال نفسه جرمانيا قحّا، فكأنّ الجنسية الألمانية في الرايخ الألماني الحالي لا تحقّ إلّا لأحفاد الجرمان . . . فارجعوا إلى اكثر الفترات مجدا في تاريخ الجيش والدفاع المدني عندنا، تسمعوا في كلّ مكان برجال من أصل سلتي أوسلافي أوإيطالي أوغيرذلك. فيا أيها السادة، إلى أين ينتهي بنا المطاف إذا طفقنا ننبش في أصل كلّ واحد منّا؟»

ولم يكن لدى فيرشوف أي تفهّم للتخوفات من أن تقوى التأثيرات الدخيلة في ألمانيا، وكان هذا الشعور منتشرا في ثمانينات القرن الماضي، ولمّا ظهر منشور في برلين يدّعي، على سبيل التحريض، أنّ تركيا من الأتراك قد يتمكّن في يوم قريب من أن يكون عضواً في المجلس البلدي، ردّ فيرشوف: «هذا احتمال ليس بكبير، ثمّ إنّي لا أعرف في

الدستور مادّة تمنع التركي من أن يتجنس بالجنسية البروسية، فإذا كان هذا التركي في برلين، وطاب لسكانها أن ينتخبوه في المجلس البلدي، لم يبق لكم، أيّها السادة، إلّا أن تنزلوا عند رغبة إرادتهم، سواء أحببتم أم كرهتم».

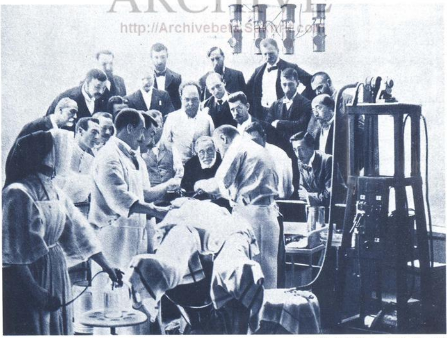
اشتغل فيرشوف بعلم الآثار، فكان يحبّ السفر، وتعرّف بهاينريش شليمان ـ وهو عالم بالآثار مشهور اكتشف مدينة طروادة ـ وسافر معه إلى مناطق آسيا الصغرى والى اليونان ومصر، وساعده في التنقيب عن طروادة. ولمّا صدر كتاب شليمان «إليون، مدينة الطرواديين وأرضهم» في 1881، كان إهداء طبعته الألمانية لفيرشوف.

لم يكن فيرشوف من الذين يريحون ويستريحون، وكان في خصام شبه دائم مع المستشار بيسمارك، لكنّ مسألة واحدة جمعت كلمتهما: محاربة الدولة للكنيسة. ففي هذا النزاع، وقف فيرشوف إلى جانب الدولة البروسية ـ وكانت له أسبابه الخاصة بطبيعة الحال ـ واجتهد في الدعوة إلى مكافحة الكنيسة. وكان يرى ذلك الكفاح موجّها ضدّ الكنيسة الكاثوليكية التي استباحت لنفسها حقوقا مفرطة في المجالين الديني والدنيوي.

احتفل فيرشوف في 13 أكتوبر 1901 بعيد ميلاده الثمانين، فألقى بالمناسبة صديقه النائب الليبرالي أوغين ريشتر كلمة، عرض فيها لمناقب فيرشوف وكثرة مواهبه، قال: «في الأزمنة القادمة والقرون اللاحقة سوف يتعذّر على الناس أن يصدّقوا بأنّ رجلا واحدا أنجز كلّ هذه الإنجازات الباهرة في شتّى المجالات المتباينة. وهكذا سوف تنشأ أسطورة وتنتشر، مفادها أنّ فيرشوف لم يكن شخصاً بعينه عاش في أواخر القرن التاسع عشر، وإنما هو اسم استعير وقتئذ لمجموعة من الناس الممتازين الذين أتوا أعمالا رائعة في الميادين المختلفة».

سقط فيرشوف في يناير التالي، وهو في طريقه إلى إحدى المحاضرات، فانكسر عظم فخذه، ومات من جرّاء هذا الكسر بعد عدّة شهور، في 5 أكتوبر 1902.

كان رودولف فيرشوف رجلا صغير القامة، كبير الشأن، عظيم النشاط، ذكي القلب، متواضعا، محبّا للعدالة الاجتماعية. وقد لقيت إنجازاته أعظم التقدير وأوسعه ـ ربّما في الخارج أكثر ممّا في الداخل ـ ثم إنّ الشجاعة الأدبية كانت من أبرز فضائل هذا الرجل الفذّ.



كان رودولف فيرشوف ماهرا في الطبّ والجراحة، ويظهر في هذه الصورة من عام 1900 في الوسط مرتدياً بدلة داكنة أثناء عملية جراحية على الجمجمة في أحد مستشفيات باريس.

بين الادبين العربي والأوروبي
«تاريخ علم الأدب عند الأفرنج والعرب وفكتور هيجو»

قسطندي شوملي

يمثّل كتاب روحي الخالدي «تاريخ علم الأدب عند الأفرنج والعرب وفكتور هيجو»، أوّل محاولة في فلسطين حاولت تلقيح الأدب العربي بلقاح جديد مقتبس من الآداب الأوروبية. فقد تخطى المؤلف في كتابه هذا الحدود السابقة في النظر إلى الأعمال الأدبية، باعتماده مقاييس جديدة تختلف عن المقاييس النقدية السابقة، وأثار قضايا نقدية هامة تتعلّق بالشعر وتطوّره وعلاقة الأدب بالحقيقة والحياة.

درس الخالدي في القدس وبيروت والآستانة، ثمّ التحق في باريس بمدرسة العلوم السياسية، وأتم دروسها في ثلاث سنوات، ثمّ التحق بدار الفنون العالية في السوربون، ودرس فيها فلسفة العلوم الإسلامية والآداب الشرقية. ثم عُيّن مدرّسا في جمعية نشر اللغات الأجنبية في باريس. وتعرّف إلى المستشرقين وهو طالب في السوربون، فتوثقت صلته بهم، وعرفوا فضله وعلمه، فدعوه إلى الاشتراك في مؤتمراتهم وإلقاء المحاضرات في اجتماعاتهم. وبعد أن عاد إلى الآستانة، عُيّن قنصلاً عاما في مدينة بوردو في فرنسا، حيث بقي في هذا المنصب نحو عشر سنوات (1898-1908) إلى حين إعلان الدستور العثماني. وكان خلالها ينشر بحوثه ودراساته في الصحف العربية وأخصها مجلة الهلال بتوقيع المقدسي. وكان الخالدي كاتبا بارعا، له عدة مقالات ومحاضرات ورسائل متفرقة في صحف مختلفه. وله مؤلفات عديدة، منها: علم الألسنة، ورحلة إلى الاندلس، والعالم الإسلامي، والانقلاب العثماني، وتاريخ الشرق وامرائه، ورسالة في ترجمة برتلو، ورسالة في علم الكيمياء عند العرب وكيف انتقل إلى الإفرنج. تزوّج الخالدي بآنسة فرنسية اسمها هرمانس بنسول، وبعد إعلان الدستور، عاد إلى القدس فانتخبه مواطنوه نائبا عنهم في مجلس النواب العثماني. وقد توفي في الآستانة اثر حمى التفوئيد التي اصابته.

صدرت الطبعة الأولى من كتاب «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفكتور هيجو» في عام 1904، وكان الاستبداد قد نال نفوس العثمانيين وقيد أقلام أحرارهم، مما دفع الخالدي إلى نشره في مجلة الهلال في مقالات متوالية بلا توقيع عامي 1902 و1903، ثم في كتاب على حدة عام 1904 واكتفى بالاشارة إلى موطنه بدل اسمه المقدسي نسبة إلى القدس الشريف مسقط رأسه. ونال الكتاب بعد صدوره إعجاب الأدباء في العالم العربي، فأعيد طبعه مرة ثانية عام 1912. ونشر المؤلّف الكتاب في الذكرى المئوية للشاعر الكبير فكتور هيجو، إلا أنّ الكتاب كان يهدف في الحقيقة - كما ذكر المؤلّف في منشور وزعه باللغة الفرنسية بعد صدور الطبعة الأولى للكتاب، يخاطب به أدباء الإفرنج - إلى إعطاء قرّاء العربية والشعراء والأدباء، فكرة واضحة عن الأدب الفرنسي بصورة خاصة، والآداب الأوروبية بصورة عامة، وتعريفهم بالأجناس الأدبية المختلفة والموضوعات المتنوعة التي يتناولها الشعراء المحدثون. وقارن المؤلّف بين الآداب العربية والإفرنجية، وذكر ما اقتبسه الإفرنج من أساليبنا وآدابنا خلال العصور الوسطى، كما بيّن الفروق الموجودة بين المدرسة الكلاسيكية والمدرسة الرومنسية. وقارن بين قصائد شعرية للمتنبي والمعري وغيرهما وشعر فكتور هيجو.

وكتـاب الخـالـدي هو دراسـة مقارنـة للأدبـين العـربي والفـرنسي ، حاول فيـه إظهار مواطن الاتّفاق والاختلاف بين الأدبـين . وكـانت هذه الدراسة قد دفعت بالمؤلّف إلى إجـراء الموازنات والمعارضات بين الأدبين . وكانت آراؤه في هذا الميـدان نتيجـة لنظـرتـه المقـارنـة . وكان هذا الكتاب خطوة هامة في حياة النقد الأدبي الحديث في العالم العربي بصـورة عامـة وفلسطـين بصورة خاصة ، وذلك لظهوره في تلك الفـترة المبكـرة ، فكـان بذلـك سبقـا في ميـدان النقد الأدبي الحـديث ، كما أسهم في بنـاء الجسـر الكبـير بين الثقـافتـين العـربيـة والأوروبيـة ، الذي شارك فيه سليمان البستـاني في كتـابـه «مقـدمـة الإلياذة» 1904 ، وقسطاكي الحمصي في كتابه «منهل الوراد في علم الانتقاد» 1907 ، ورفاعة الطهطاوي في كتابه «خلاصة الإبريز» .

وكتـاب «تـاريـخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفكتور هيجـو» كما ورد في عنـوانـه المطـول : « . . . يشتمـل على مقـدمـات تاريخيـة واجتـماعية في علم الأدب عند الإفرنج ومـايقابله من ذلك عند العرب إبّان تمدنهم إلى عصورهم الـوسطى . ومـا اقتبسه الإفرنج عنهم من الأدب والشعر في نهضتهم الأخيرة وخصوصا على يد فكتور هيجو. ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته ومنظوماته وغير ذلك» . وقد وصف في الجزء الأوّل من الكتاب (ص 1-24) احتفال الفرنساويين في اوائل عام 1902 باليوبيل المئوي لمولد هذا الشاعر إلى أن انتهى إلى القـول : «ثم لما آتيت الآستـانـة ، وجـدت أدبـاء الأتـراك وشعـراءهم ترجمـوا كثيرا من نظم فكتـور هيجوونثره في ما نشـر من مؤلفـات كمال بك ، وعبـد الحق حامد بك وأكرم بك ، ومـدحت أفنـدي صاحب جريدة «ترجمان حقيقة» ، وفي «مجمـوعـة الضياء» ، و«كتبخانة أبي الضياء» . وترجم شمس الدين سامي باشا صاحب قاموس الأعلام ، جزءاً كبيرا من «ميزيرابل» وسمّاه بإضافة أداة الجمع التركية على كلمـة «سفيـل» العـربيـة ، فقال «سفيللر» أي السفلة من الناس . ثم بلغني أنّ بعض أدباء مصر شرع في ترجمة هذا المؤلف الجليل ، وسمّاه البؤساء أو نحوذلك ، فجمعت شيئا من أخبار فكتور هيجو ليحصل لنا علم إجمال بترجمة حياته وحقيقة فلسفته وسبب شهرته» . ثم تناول بعد ذلك الدور الأوّل من حياته من ولادته سنة 1802 إلى نفيه عام 1852 ، ثم الـدور الثـاني وهـو مدة وجـوده منفيا من سنة 1852 إلى



جامعة السوربون

رجـوعـه الى باريس سنـة 1870 ، ثمّ الدور الثالث ، وهو دور الشيخوخة ، أي من رجوعه إلى فرنسا عام 1870 إلى وفـاتـه سنـة 1885 . وحسب هذا الكـلام ، فإنّنا نستطيع القـول إنّـه كان لعناية الاتراك بشعر فكتور هيجو، وحقيقة فلسفتـه وتـرجمة الكثير من شعره ، ومابلغه من ترجمة كتاب البـؤسـاء في مصر ، من الأسباب التي حملت الخالدي على وضع كتابه للتعريف بحياة فكتور هيجو.

وعرض في الفصل الثاني تاريخ الأدب العربي من الجاهلية إلى العصـر العبـاسي ، وظهـر من خلال عرضـه ، تأثـره بالاتجاهات الغربية الحديثة . كما عبّر عن مجموعة من الآراء النقـديـة الجديدة . وبدأ بتعريف الأدب فقال : «أدب كلّ لسـان ما حصـل فيـه الإجادة من الكلام المنظوم والمنثور . ويشتمـل على فنـون الشعر والأغاني والروايات والقصص وضـروب الأمثـال والحكم والنـوادر والحكـايات والمقامات والتـاريـخ والسيـاسـة والـرحلة وغيرذلك» . وهويقول إنّ الأصل في الكلام للمعاني لا للألفاظ . لأنّ اللفظ قالب أو ظرف للمعنى يتّخـذه المتكلّم أو الكـاتب لسبك ما يصوّره في نفسه ويشكّله في قلبه من المعاني ، فينقل بذلك مقصوده للسـامـع أو القـارئ حتّى يعلمـه كأنـه شاهـده» . وهـذا تعريف يقترب من المفهوم الحديث للأدب ، بالإضافة إلى انّـه يشمـل الأدب أنـواعٌ جديدة من الفنون الأدبية التي لم يعهـدهـا القـدامى . ويعـرّف البـلاغة بقوله «هي مطابقة اللفـظ للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة المعنى المقصود الذي يقتضيه الحال والمقام . وفي المثل لكـل مقام مقال» ، وربط بين البلاغة في اللغة والحضارة ، وذهب إلى أنّ البلاغة «لا تختصّ باللسان العربي وحده ،

وكلّما ارتقت أمّة في سبيل الحضارة، كان لسانها أبلغ وأدبها أوسع وأكمل . . .»

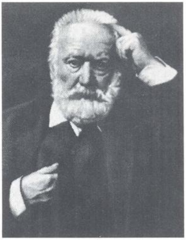
وتحدّث عن اللغات ولهجاتها وخصائص اللهجات العربية واستعرض تاريخ وخواص اللغة العربية حتى انتهى إلى القول: «فالكلف في زماننا لتقليد الإنشاء العالي ونظم قصيدة ثامنة للمعلقات السبع أو سجع مقامات ثالثة لمقامات الحريري والهمذاني، ليس فيه كبير فائدة، مادام الأصل في الكلام للمعاني والمقصود من المعاني إظهار أسرار هذا الكون الذي نصبح فيه ونمسي ونحن غافلون عن كثير من حقائقه. ولا ندري بأيّ عبارة نترجم عنه ولا كيف نوضّح شعورنا وإحساسنا بهذا الوسط الذي نحييه وهو سجن لنا، والدنيا سجن المؤمن. فهذه المعاني البليغة العالية ينبغي لأدباء العصر سبكها في السهل الممتع من الكلام الفصيح بغير تهافت منهم على الكلمات اللغوية والمحسنات اللفظية من جناس وطباق وقراءة الكلام طردا وعكسا. وأمثال ذلك ممّا يعدّه العقلاء من الملاعب البيانية، إذ ليس هذا غاية الأدب، والغرض منه، وخير اللفظ ما جاء بالطبع والبداهة بلا تكلف ولا تحرٍ في القواميس والمنشئات». وفي دعوة الخالدي هذه للاهتمام بالمعنى، موقف ريادي غير مألوف في الأدب العربي آنذاك.

ثم انتقل الخالدي إلى الحديث عن الشعر العربي وخصائصه ومميزاته، والفروق الموجودة بينه وبين الشعر لدى الأمم الأوروبية والأميركية، في الوزن والقافية والموضوعات. واستعرض شعراء الجاهلية إلى ظهور الإسلام، وكتب عن القرآن وفصاحته ولغته، وكيف ظهرت طبقة جديدة من الشعراء بظهوره. ثم انتقل إلى شعراء الدولة الأموية ثم شعراء الدولة العباسية، ثم الشعر الأندلسي. واستعرض أشهر المؤلفات النثرية التي ظهرت خلال القرون التي تلت ظهور الإسلام، من مؤلفات لغوية وأدبية وتاريخية. وخلال عرضه لذلك أجرى المقارنات بين الأدبين العربي والإفرنجي في مختلف المجالات، وأظهر ميادين التأثر والتأثير، مبينا إحاطته الواسعة بالآداب الأوروبية عامة والأدب الفرنسي بصورة خاصة. وأشار بصورة خاصة إلى حاجة الأمّة العربية إلى معرفة الفن المسرحي عند عرضه للروايات التمثيلية التي ألّفها فكتور هيجو، وهو يقول:

«ولعل أدباءنا ينهجون هذا المنهج الجديد في التآليف الأدبية، ولا يقفون عند حدّ القصيد والرجز أو الرسائل والمقامات والخطب، فإنّ القرن العشرين مفتقر إلى تصوير الاخلاق الشرقية بأسلوب الروايات التمثيلية، ومحتاج إلى درس تاريخ الأمم الشرقية درسا مدققا، ومعرفة خصال كلّ رجل من مشاهير رجاله». ويعلّل عدم اهتمام الأدباء العرب بهذا الفن التمثيلي بقوله: «لما حدث الانقلاب الكبير في انتقال الخلافة الإسلامية من الأمويين إلى العباسيين، وترجمت كتب العلم والحكمة إلى لسان العرب، قرأ أدباء المسلمين كتاب المنطق لأرسطو ورأوا فيه ذكر أوميروس الشاعر والثناء عليه، فلم يحفلوا بشعره ولا بشعر أحد من الأعاجم، ولا التفتوا إلى أساطير اليونان، ولا لما وضعوه من الروايات التشخيصية، ولا قدروا حرية فكرهم ولا ذوقهم في الكلام حق قدره. لانشغالهم عن ذلك بما لديهم من فنون الشعر وأنواع الخطب والرسائل والدواوين والمعلقات، ولاسيما ما أدهشهم من كلام الحديث والقرآن. فترجموا كتب المنطق والنجوم والطبيعيات والطب والهندسة، ولكنهم لم يترجموا لأديب من أدباء اليونان، ولا أدباء الرومان. ولا قصيدة ولا خطبة ولا رواية ولا حكاية من حكايات أساطيرهم. ولعلهم خافوا على الناس من الرجوع إلى عبادة الأوثان إن بحثوا لهم في آلهة اليونان. ومع ذلك فترجمة كتب العلم والحكمة إلى لسان العرب ظهر لها تأثير في توسيع أفكار الشعراء الإسلاميين.»

وعرض الخالدي في الفصل الثالث من الكتاب، تاريخ الأدب الفرنسي منذ كانت فرنسا تسمّى أرض غولا، إلى أن بلغ فكتور هيجو. وقد تناول فتح العرب لأوروبا الغربية والحروب الصليبية، وذكر أثر الشعر والقصص العربي على الأدب الفرنسي، وشرح المذاهب الأدبية الغربية. ثم بحث الكاتب في نشأة الأدب الإفرنجي، وفي دخول العرب بلاد الإفرنج والحروب التي دارت بين العرب والإفرنج في بلاد الأندلس، وفتوح المسلمين في جنوب أوروبا. ثم قدّم لنا خلاصة تاريخية لأحوال أوروبا الداخلية بعد رجوع العرب منها، ثم انتقل إلى الحروب الصليبية.

وكان الخالدي من خلال مقارنة لفن الشعر في الأدبين العربي والأوروبي، قد وجّه الدعوة إلى التحرّر من قيود الشعر. ذلك أنّ اتّجاه العصر الحديث هو نحو التعبير الحرّ



فيكتور هيجو بريشة الرسام بونات

المطلق. ولقد ظهرت هذه الدعوة واضحة من خلال عرضه للطريقة الكلاسيكية والطريقة الرومانية (الرومنسية). وهو يشير إلى أنّ الغالب في الشعر العربي أن يعلو به النفس ثم ينقطع قبل ان يشفى غليل النفس بذكر الوسط الذي يقوم فيه الشاعر وشرحه ووصفه بجميع ما فيه، كما يفعل شعراء الإفرنج. ويشير إلى أنّ أدباء الإفرنج يقولون إنّ الشعر العربي فيه كثير من الصنائع البديعية وله رونق وبهجة، وفيه تهييج للمسامع، وهو على أسلوب التوراة، وعلى نسق اللغات السامية، ولكنّ الكلام الذي فيه تصنع في الألفاظ، وتعمل في الشكل الخارجي، لا يكون فيه حركة ذهنية ولا تخيل فكري. وما لم يكن فيه ذلك، ليس فيه إحساس ولا عظمة مطلقا. وإذا ارتفع نفس الشاعر أو الكاتب في الكلام الذي فيه تصنع وتعمل، لم يبق على ارتفاعه، بل ينقطع حالا وينتقل إلى غير ماهو فيه، بخلاف الشعر اليوناني أو الإفرنجي.

وعرض الخالدي في هذا الفصل أيضا كيف أنّ الفرنساويين قبل اختلاطهم بعرب الأندلس، لم يكن لأشعارهم روي ولا قافية، فأخذوا من جيرانهم الأندلسيين علم القوافي. ويشير إلى أثر الأدب الأندلسي في تطوّر الشعر العربي، فيقول: «الأندلسيون أصلحوا كثيرا من الخلل الموجود في أدب العرب، وجاءوا بالمطوّلات في فنون كثيرة من الشعر والنثر. واوجدوا فنونا مستحدثة، واتّبعوا في الكلام شعورهم وإحساسهم القبلي فطافوا على قرائهم بصحائف من ذهب وأكواب فيها ما تشتهي الأنفس، وترى في وصفهم المناظر الطبيعية وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة بأشعار الإفرنج . . . ولو طال عليهم الأمر في الحضارة وتعاقبت الأدوار على اللغة، وتوالت عليها الانقلابات، لأتوا بأحسن ممّا جاء به فكتور هيجو، وإميل زولا من محصول العقل ومجتنى الفكر البشري».

وعن اثر الموشحات على الشعر الغربي ينقل الخالدي عن صاحب جريدة الارز قوله «وقد استحسن شعراء الإفرنج من الإسبان والألمان والطليان والفرنساويين هذه الضروب من فنون الشعر العربي، ونسجوا على منوالها، كما يرى ذلك في دواوين شعرائهم.»

وعرض الخالدي في كتابه صورة واضحة ومتبلورة عن المدارس الأدبية في البلاد الغربية، وعرض الأسس التي تقوم عليها هذه المدارس. وقد أظهر من خلال عرضه ميولا رومنسية واضحة، تعلل سبب اهتمامه بفكتور هيجو. وقد أظهر أهم القواعد التي تقوم عليها المدرسة الرومنسية، من خلال شرحه لفلسفة هيجو في الفصل الاخير من الكتاب الذي خصّصه لوصف مناقبه ومواهبه وأثره في الأدب الفرنسي. وعرض فيه أيضا مؤلفات فكتور هيجو ومنظوماته، وشرح أنواع الشعر وطرق تأليفه وموضوعاته والقواعد التي سار عليها الأدباء والكتاب الإنجليز والألمان والفرنساويون وغيرهم، وتتبع تطوّر الآداب الأوروبية ومناهجها إلى ظهور فكتور هيجو وبوالو. ومن أهمّ القواعد الرومنسية التي أظهرها بوضوح في كتاباته، هي صدق التعبير عن تجارب الأديب النفسيه، فهو يقول: «فالواجب على الكاتب أن لا يشغل نفسه بالاستعارات وأنواع البديع، وأن لا يتصنع ولا يعتمل في الكلام، بل ينبغي له أن يهتمّ ببيان الموضوع الذي هو فيه واضحا ووصفه بالأوصاف السديدة المظهرة له ظهور الشمس في رابعة النهار. ويضع انفعالاته النفسية في ذلك الموضوع ليكون اشد تأثيرا على السامع، فتأثير الكلام، يكون من جهة الانفعال النفسي والتصوير الطبيعي، لا من جهة الاستعارات». وفي شرحه للفرق بين المدرسة الكلاسيكية والرومنسية، يعرض لموضوع التقليد والإبداع فيقول «ينبغي التفريق بين الانتظام ورعاية القواعد، فرعاية القواعد أمر لا يتعلّق إلّا بالشكل الخارجي، وأمّا الانتظام، فينتج عن باطن الأشياء، أي من ترتيب العناصر الأصلية التي في الموضوع المبحوث، ترتيبا يستحسنه الذوق». وحين يعرض قواعد المدرسة

الرومنسية كما سجلها فكتور هيجو في مقدمة رواية كرمويل يقول: «ان الطريقة الرومنسية أرجعت الشعر إلى الحقيقة والطبيعة والحياة، وتركت التصنع والزخرفة».

وكان انتصار الخالدي لقضية المعنى في هذا الكتاب اتجاهاً جديداً في عصره، فقد كان النقد الأدبي العربي القديم، يقدّم اللفظ على المعنى، وكذلك أنصار المدرسة التقليدية في بداية هذا القرن، وهو يرى متأثرا بالاتجاهات الغربية، أنّ الأصل في الكلام للمعاني لا للألفاظ، لأن اللفظ قالب أو ظرف للمعنى يتخذه المتكلم أو الكاتب لسبك مايصوره في نفسه، ويشكله في قلبه من المعاني. ويقول: «إنّ المقصود من المعاني إظهار أسرار هذا الكون الذي نصبح فيه ونمسي، ونحن غافلون عن كثير من حقائقه، ولا ندري بأية عبارة نترجم عنها، ولا كيف نوضّح شعورنا وإحساسنا بهذا الوسط الذي نحن فيه وهو سجن لنا». وهو يستشهد بقول الشاعر فكتور هيجو في كتابه المسمى «أدب وفلسفة»: «لايكفي أن يكون الشعر قالب حُسن للألفاظ، بل يلزم أن يحتوي على معنى أو تشبيه أو إحساس ليكون له رائحة ولون وطعم، تسعى النحلة في بناء الواجهات الست لبيوتها من الشمع ثم تملؤها بالعسل، فهذه البيوت او الخلايا هي ابيات الشعر، والعسل هو الشعر».

وقد أظهر الخالدي اهتمام الغربيين بالمعنى وأن المعنى عندهم يفوق كثيرا الاهتمام باللفظ، كردّ فعل للتركيز على الألفاظ واستعمال المحسنات البديعية في الكتابة العربية التقليدية.

ولعلّ الخالدي في كتابه هذا، أوّل كاتب فلسطيني حاول إرساء قواعد النقد على أسس موضوعية ونظرية. ولكن هذا الكتاب لم يكن له التأثير المتوقّع في عصره، لأنّ الأدباء كانوا إلى ذلك العهد مشغولين في نظم الشعر الحماسي وإنشاء المقالات الوطنية والاجتماعية. ولقد توخّى الخالدي في أسلوب الكتاب السهولة في العبارة وتناسقها مما يرتاح إليه القارئ ويجد لذة في مطالعته. وكان بإمكانه كما يقول، أن ينظم الكتاب شعرا منثورا بطريقة الحريري، ولكنه يرى أنّه من الأفضل أن يكون الكاتب واضحا ومفهوما لجمهور القراء على أن يستعمل الألفاظ المصقولة والبراقة التي لاتغني ولا تفيد.

وتعرض لهذا الكتاب عدد من النقاد، فتناولوه بالدراسة والتحليل فقد عرض ناصر الدين الأسد في كتابه «محمد روحي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين» أهمّ الآراء النقدية الموجودة في الكتاب. وشرح عبد الرحمن ياغي في كتابه «حياة الأدب الفلسطيني الحديث» أهمّ القضايا النقدية التي وردت في الكتاب بإيجاز شديد، وهو يرى أنّ الخالدي في عرضه لهذه القضايا، قد أظهر أفقا نقديا واسعا، وميلا واضحا نحو المدرسة الرومنسية، كما أظهر اتّصالا وثيقا بالثقافة الفرنسية. وتناول هذا الكتاب إسحق موسى الحسيني في كتابه «النقد الأدبي المعاصر في الربع الأوّل من القرن العشرين». وعرض لأهم الآراء النقدية فيه. وهو يرى أنها في صلب النقد الأدبي، ورجح أنّ الخالدي من أوائل من استعمل عبارة النقد الأدبي في كتابه، إذ وضع في الهامش مرادفها الفرنسي critique literaire. وذهب هاشم ياغي في كتابه «حياة النقد الأدبي في فلسطين» إلى أنّه «وإن كان هذا الكتاب من حيث مستواه النظري رائعا، فإنّه من حيث مستواه العلمي، تعثر بعض التعثر وبخاصة حين ألحّ على أن يجد التشابه بين فكتور هيجو والمعري أو المتنبي، ولم يفطن الى الخيوط الاجتماعية التي تقيم الفرق بين هيجو من جهة والمعري والمتنبي من جهة ثانية» وأخذ عليه خلطه بين مفهوم الأدب ومفهوم اللغة، والإلحاح على اهتمام الأوروبيين بالمعنى والوقوع في العديد من التعميمات التي كثر انتشارها في كتب الأدب. وأشار هاشم ياغي إلى هذه الملاحظات دون أن يظهر بصورة واضحة الطريقة التي تمّ فيها هذا الخلط او الوقوع في التعميمات.

ومهما اختلفت الآراء وتنوّعت، فإنّ علم الأدب عند الإفرنج والعرب يُعَدُّ من الكتب الأولى التي رسمت ملامح الحركة النقدية في فلسطين، وساعدت في تطور النقد الأدبي الحديث في العالم العربي. كما يُعَدُّ هذا الكتاب أيضا من الدراسات المقارنة الأولى بين الأدبين العربي والأوروبي، فالمؤلف يستعرض مجالات التأثّر والتأثير بين الأدبين، وبصورة خاصة ما اقتبسه الإفرنج من قواعد الشعر العربي ومن القصص العربي ومن العلوم العربية. ●

طه حسين ـ الرائد والعالم والكاتب

فيبكه فالتر

لو عاش طه حسين حتى الرابع عشر من نوفمبر 1989 ، لبلغ المائة من العمر. وعندما توفي في 28-10-1973 ، فقدت مصر بموته أكبر رجالاتها في مجال الثقافة والعمل العام في هذا القرن. وُلد طه حسين سابعا في أسرة وُلد لها ثلاثة عشر طفلاً، والوالد موظّف صغير في مجال التجارة في بلدة واقعة في أواسط الصعيد. وفقد الطفل طه بصره في السادسة من عمره. على أنّ هذه الآفة لم تمنعه طوال حياته من أن يظلّ يواجه العادات والتقاليد القديمة التي يرى أنّها تجمّدت أو فسدت أو فقدت دورها ووظيفتها، كما عمل طوال حياته معلّما ورائداً ثقافيا لشعبه وأمّته.

تلقّى طه حسين تعليمه الأوّلي بعد كُتّاب القرية بطريقة تقليدية بالأزهر بين عامي 1902 و 1908. وفي ذلك العام انتقل إلى الجامعة الأهلية الحديثة التأسيس حيث سمع على علماء مصريين وأجانب، وتقدّم إلى تلك الجامعة الحديثة بالأطروحة الأولى عام 1914 ، وكان موضوعها: الشاعر والفيلسوف الشامي أبو العلاء المعري. وما ينبغي قوله هنا إنّ العمل على أبي العلاء المعري لم يجذبه بالدرجة الأولى لأنّه كان ضريرا مثله فقط، بل لأنّ أبا العلاء، شأنه في ذلك شأن طه حسين فيما بعد، لم يتردّد لحظة في مواجهة الأفكار الموروثة وإعادة النظر فيها. وكما كان الشأن في الأزهر، فقد اتهم طه حسين أثناء مناقشته لعمله الأوّل هذا بالإلحاد والزندقة، لكنّه استطاع الردّ على الاتّهامات وإبطالها، وبنتيجة ذلك حصل طه حسين على منحة من الجامعة المصرية لمتابعة دراسته بفرنسا، بمونبلييه أوّلا ثمّ بالسوربون بباريس. وأنهى دراسته هناك بأطروحة ثانية عن المؤرخ المسلم المعروف ابن خلدون. وهكذا فإنّ طه حسين اختار للمرّة الثانية مجالا لعمله العلمي إحدى الشخصيات الفكرية البارزة في المجال الحضاري العربي الإسلامي.

وعاد إلى مصر عام 1919 ، فعُيّن فورا أستاذا للتاريخين الإغريقي والروماني بالجامعة المصرية حتّى 1925 . ففي ذلك العام، تسلّمت الدولة المسؤولية عن الجامعة التي كانت ما تزال أهلية منذ تأسيسها، وأعطي طه حسين كرسي الأدب العربي بكلّية الآداب. وعندما بدأ يُدرّس الأدب العربي، سلك في قراءة الشعر الجاهلي، والشعر الإسلامي المبكّر مسلكا جديدا، ما كان معهودا بالعالم العربي حتّى ذلك الحين ـ عن طريقة رؤية ذلك الشعر في سياقه التاريخي الاجتماعي. واجتهد طه حسين في تقريب

مسلكــه ذلــك لطلبتــه ، كما اجتهـد من قبـل في عرض التاريخين اليونـاني والرومـاني لطلبتـه ، وعـرض تاريـخ الحضـارة ، والأدب ـ في لغتـه الأصلية أومترجما ـ على أنها جميعـا عنـاصـر قد غذّت كثيرا حركـة النهضة الأوروبية ، وأثّرت فيهـا تأثيرا أسـاسيا . وكان قد بدأ ينشر عن تاريخ الشعـر العـربي ونقده في إحدى الصحف اليومية في عامي 1923 و1924 . وقــد جُمعت تلك المقــالات فيـما بعـد في كتـابـه : حديث الاربعـاء . لكن كتابه الصادر عام 1926 بعنوان : في الشعر الجاهلي ، تضمّن موقفا نقديا جذريا من أصالة الشعر الجاهلي ، إذ قال بانتحال أكثره ، ممّا أثار عليه عاصفة هائلة تحوّلت إلى أزمة برلمانية ، وأدّت الى مصادرة الكتــاب . وتميّـز تاريخـه الـوظيفي الـلاحق بانقطـاعـات متعـدّدة . فقـد تولى منـاصب رفيعـة متعدّدة بدأت بعمادة كليـة الآداب عام 1928 وعـام 1936 ، فرئـاسـة جامعـة الإسكنـدريـة الجـديـدة ، فمنصب المستشـار الفني لوزير التربية والتعليم من 1942 إلى 1944 فوزير للتربية والتعليم 1950-1952 . على أنّ تلك المنـاصب السـاميـة كانت تنتهي دائـما بالإقـالـة او الاستقـالـة ، ليس بسبب تغيّر الحكـومـات فقـط ، بل بسبب شجـاعـة طه حسـين أيضا واتّبـاعـه لقنـاعـاتـه الشخصيـة وتصرّفه على أساس منها بالمعنى العلمي الأكـاديمي . وهـويختم الجـزء الثـالث من مذكراته ببيت لأبي نواس ، وكان قد استشهد به في مقالاته «حـديث الاربعـاء» في العشـرينـات دفـاعـا عن موقفـه الفكري والأخلاقي في وجه الهجمات عليه :

وما أنا بالمشغوف ضربة لازب

ولا كلّ سلطان علي أمير

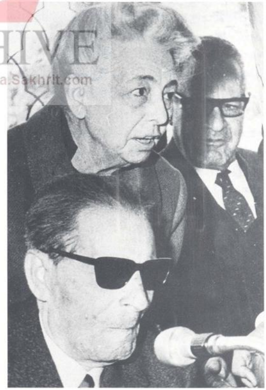
كُرّم طه حسين وشُرّف من جانب جامعات أوروبية كثيرة ، فقد مُنح الدكتوراه الفخرية على سبيل المثال من جامعات مدريـد وكمـبردج ومونبلييه . كما كان عضوا مراسلا لهيئات علمية متعـدّدة . وظلّ لحقبة طويلة رئيسا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة . وبمناسبة بلوغه السبعين ، أُهدي كتابين تذكـاريــين من زمـلاء وتـلامـذة عرب وأوروبيـين . وفي الذكرى المئوية لمولده ، أُقيم مطلع ديسمبر عام 1989 مؤتمر عن شخصيته وأعماله في إكس ـ آن ـ بروفنس . وقد ترجم عدد من أعمـالـه إلى الفـرنسية والإنكليـزيـة . أمّا كتابه الأيـام ، الـذي يروي قصـة حيـاتـه في ثلاثـة أجزاء ، فقد ترجم إلى عدّة لغـات أوروبيـة لشهـادتـه على عصره من جهة ، وللحساسية والروعة اللتين تبدوان في ذلك العمل . وهـو الكتـاب الـوحيـد لطـه حسين الذي نملك منه ترجمة ألمـانيـة . وتتميّـز أعـمال طه حسين الأدبية والفكرية بلغتها العـاليـة الأسلوب ، والـرائعة الوضوح والبيان ، والتي تمتع القـارئ سواء عربيـا كان أم مستشـرقـا . وقـد اتّخـذت في



طه حسين
في عنفوان شبابه

أحيـان كثيرة نصوصـاً للتعليم لدى طلاب الاستشراق والـدراسـات العـربيـة. وقد تفرّد طه حسين في شخصيته وأعمـالـه الأدبية والفكـريـة طوال نصف قرن من الـزمان بحيث يمكن اعتباره شاهدا لعصره وعليه بمصر من حيث البيئـة العلميـة، والاتجـاهـات الاجتـماعيـة والسيـاسية. وتـذكـرنـا أعـمال طه حسـين وسـيرتـه الشخصيـة بالعبارة المشهـورة للفيلسـوف الألماني عمانوئيل كانت التي وردت في كتـابـه نقـد العقل العملي (1788): «إنّ السماء المتشابكة النجـوم من فوقي، والمبـدأ الأخـلاقي الكـامن بداخـلي، ليملآن فؤادي بإحسـاس بالإعجـاب والرهبة متجدّد أبداً ومتـزايـد»، والعبـارة الأخـرى القائلة: «إنّ النهوض يعني تحرّر الإنسـان من المهـاوي التي أوقعـه فيها عدم تعقّله». ففي الحق، إنّ طه حسـين كان ذاك هدفـه في كلّ أعـمالـه العلميـة والأدبيـة والـتربوية. فقد دعا إلى القيم الإنسانية العليـا ذات الأصـل الأوروبي، وتلك النابعة من المراحل المبكّـرة في التـاريخ العـربي الإسـلامي، وفهم ذلك كلّه باعتبـاره دليـلا مرشـداً إلى التسـامـح، والانفتـاح على التطـورات الجـديـدة، والاستعـداد الفكـري والنفسي للدخـول في حوار ونقـاش مع الآخرين، والالتزام بمبادئ إنسـانيـة سامية، والدعوة إلى عدالة اجتماعية وسياسية في وطنـه والعالم. أمّا في أعماله الأدبية، فتبرز النزعة الإنسانية المتحـرّرة. ففي عمله الشاعري دعاء الكروان (1934)، يحمل على الأعـراف القـديمـة السائدة التي تقضي بقتل الفتاة غير المتزوجة التي فقدت عذريتها. ويصل إلى تجاوز مسألـة الثأر والظلم والحقـد بالتفـاهم والحب. وفي أحلام شهـرزاد (1943)، يربـط بطـريقـة جميلة بين المرأة الذكية والحكيمـة التي تستـوعب وتتجاوز، والحاكم المستبدّ الذي ينتصر في أعـماقـه الإحسـاس بالحقّ والعـدالة، والشعب الـذي يرغب في السـلام والأمن. وهـو يشـترك في موضوع شهرزاد وألف ليلة وليلة هذا مع توفيق الحكيم الذي حوّل في القصر المسحور (1937) شهرزاد رمزا للداعية المتحمس للحرية العقلية والفنية.

وعنـدمـا حصـل نجيب محفـوظ على جائزة نوبل 1988، أثنى على طه حسـين باعتبـاره رائـداً له وممهّـدا للطريق. وكان يعني بذلك، ولا شك، شجرة البؤس التي كتبها طه حسين عام 1944، والتي كانت النمـوذج العربي الوحيد لثلاثية نجيب محفوظ الصادرة بعد سنوات. وقد يكون أنّ الأدب والفكـر تطوّرا بمصر بعد طه حسين تطوّرا شكليا، وتجـاوزاه في بعض النقـاط. أمّا الفكرة الإنسانية الأساسية التي قامت عليها شخصيته وأعماله فالمرجو أن تبقى الهادي والدليل لحقب متعددة. ●



طه حسين مع زوجه سوزانه والدكتور إبراهيم بيومي مذكور، رئيس مجمع اللغة العربية

تراث فلسطين
في مؤلفات غوستاف دالمان

كامل العسلي

من المعروف أن فلسطين، الأرض المقدسة، كانت موضوعا أثيرا لدى الكتاب والقراء في الغرب طيلة قرون عديدة، وخصوصا في القرن التاسع عشر. فهذا القرن الذي شهد التمدد الفكري والاقتصادي والإقليمي لأوروبا أنتج كثيرا من العقول المتطلعة إلى المعرفة: آلاف المستكشفين والسياح والعلماء والمبشرين الذين جابوا أرجاء الكرة الأرضية جميعا.

وقد اجتذب الشرق الأدنى، نظرا لتراثه القديم، ولكونه مهد الحضارة، ونظرا لأهميته الستراتيجية عددا كبيرا من هؤلاء؛ واجتذبت فلسطين، بشكل خاص، باعتبارها مهد الديانة المسيحية، نسبة عالية من الزوار والمستكشفين الذين أخضعوها للدراسة المكثفة في ميادين مختلفة، حتى إن مايدعى «أدب فلسطين» الذي أنتج في أوروبا في القرن الماضي فاق في حجمه كلّ ما كُتب عن أيّ بلد آخر خارج القارة الأوروبية.

وكنت قبل سنوات قد قرأت في مكان ما أن حوالي ألف كتاب ألفت عن القدس وحدها خلال الحكم العثماني الذي امتدّ من سنة 1516 إلى سنة 1917. لكنّ العالم الجغرافي الألماني راينهولد رورشت صحح معلوماتي بهذا الشأن، فقد أورد رورشت في مؤلَّفه البيليوغرافي الذي وضعه في الثمانينات من القرن الماضي أسماء ما لا يقل عن ألفي مؤلف نشروا ما لا يقل عن خمسة آلاف كتاب عن الأرض المقدسة بين عامي 1800 و 1878. ولاشك أن آلافا أخرى من الكتب وُضعت منذ ذلك الوقت حتى أواسط القرن الحالي. صحيح أن كثيرا من هذه الكتب كانت تقارير وضعها سياح، لا نشرات علمية، وأن الاهتمام الرئيسي لمؤلفيها كان دينيا وتبشيريا، ولم يكن علميا. وصحيح أن كثيرا من هذه الكتب كان يجافي الموضوعية وأن نسبة كبيرة منها كان مليئا بالخرافات ولاقيمة علمية له. ومع ذلك فإن العدد جدّ كبير.

وفي معظم الحالات سادت النظرة الذاتية النابعة من البيئة الفكرية التي عاش فيها الكتاب الأفكار والاتجاهات التي صدروا عنها. فهم قد جاءوا إلى الشرق وفي جعبتهم تصورات مسبقة وأفكار مصوغة من قبل مجيئهم، وحاولوا فرض هذه التصورات والأفكار على الحقائق ممّا أدّى في كثير من الأحيان إلى طمس هذه الحقائق. وكانت كتبهم في أكثريتها حافلة بمفاهيم تنطوي على تحقير البلاد وأهلها. ولم يكن هذا التحقير بلا هدف: فقد كانت هناك موضوعتان حاضرتان على الدوام في أذهان كثير من الكتاب الأوروبيين في القرن التاسع عشر: الأولى هي أن شعب فلسطين جنس منحط متخلف، لا يصلح للحضارة وغير قادر على قيادة البلاد نحو التقدم، والثانية هي أن فلسطين أرض خراب قاحلة وجرداء. وفي الحالتين كانت النتيجة التي تُستخلص واضحة: إنّ الجنس المنحط الساكن في البلاد يجب أن يُستبدل، وإنّ فلسطين يجب أن تفتح أبوابها لسكان آخرين يحلون محل السكان الحاليين. وليس هنالك مجال لإيراد الكثير من الشواهد الكثيرة للغاية، وتكفي الإشارة هنا، على سبيل المثال فقط، إلى ماورد في بعض المؤلفات من تحقير البلاد وأهلها (1.

وحتى المشاهير من نجوم الأدب مثل مارك توين وشاتوبريان، اشتركوا في الجوقة. فكتاب شاتوبريان: رحلة من باريس إلى القدس (2، وكتاب مارك توين: The Innocents Abroad كتابان مثقلان بالتحامل العرقي

1) S.L. Porter, Jerusalem, Bethany and Bethlehem, London, 1887

Mrs. Finn, Palestine Peasantry, London, 1923
المقدمة ومواضع عديدة أخرى

Charles Wilson (and E. Warren), Recovery of Jerusalem, Jerusalem, 1871
وخاصة المقدمة التي كتبها أرثر ستانلي، اسقف وستمنستر

2) Chateaubriand, oeuvres romanesques et voyages, Paris, 1969

والـديني وقـد حاول شاتـوبريان في كتابه أن يخلق مبررات لغزو الشرق في حملة صليبية جديدة. من المفهوم أنّ المرء لا يستطيـع أن يتحـرر بصـورة كاملة من الأفكـار والنـزوات والتحاملات التي تسود العصر الذي نشأ فيه والناس الذين نشأ بيـنهم. لكن إذا كان هنـاك شخص ما يستطيـع أن يفعل ذلك إلى حد ما فهو العالم الجديد بهذا الاسم والذي تحدوه روح التسـاؤل والبحث الحـر، فيحـاول أن يرى الحقـائق كما هي، مجردة من الأقنعـة الخـادعـة. والحق أنه كان هنـالـك عدد من هؤلاء بين العلماء الغـربيـين الـذين زاروا الشـرق في القـرن التـاسـع عشـر. كان هنالك عدد منهم بذلوا أقصى طاقاتهم فاستطاعوا أن يصفوا ماشاهدوه بأمانة وصدق، كأولريش زيتسن الذي زار الأرض المقدسة سنــة 1806؛ أو قامــوا بدراســات بريئـة من التحـامـل للأوضاع القائمة في البلاد ولتاريخها ولثقافتها.

وابتـداء من العـالم الأمـريكي إدوارد روبنسون (1838)، أجـرى عدد من علماء الغـرب أبحـاثـا علميـة ووضعـوا دراسـات هامـة عن فلسطين وأدّى بعضهم خدمات ممتازة في هذا المجال. ونذكر في مقدمة هؤلاء ـ في مجال واحد هو دراسـة تراث فلسطـين العربي الإسلامي ـ كلاًّ من ماكس فان بيرشم السـويسـري الذي درس وسجّل وصوّر نقوش القـدس العـربيـة في ثلاثـة مجلدات تضمّنت زهـاء أربعمائة نقش؛ ونيقولاي ميدنكوف المؤرخ الروسي الذي ألّف تاريخـا ضخـما لفلسطين من الفتح العربي الاسلامي حتّى الحـروب الصليبيـة (فيـما لا يقل عن 2800 صفحة) والجغـرافي الألماني كارل ريـتر الـذي نشر في أواسط القرن الماضي كتابا هاما عن جغرافية آسيا في عدة مجلدات، وقد اختصـره وتـرجمـه إلى الانجليـزية غيج في أربعة مجلّدات تحمـل عنـوان: الجغـرافيـة المقـارنة لفلسطين وشبه جزيرة سيناء (3. ثمّ العالم الألماني غوستاف دالمان (1855-1941)، وهو موضوع حديثنا اليوم.

ترجـع معـرفتي بمؤلفات دالمان الى ما قبل اثنتي عشرة سنة عنـدمـا تسلّمت كتابا مؤلّفا من ثمانية مجلّدات يحمل عنوان العمــل والعـادات والتقـاليـد الشعبيـة في فلسطـين (4.

3) C.Ritter, The Comparative Geography of Palestine, translated by W.L. Gage, New York 1968

4) Arbeit und Sitte in Palästina, G.Olms Verlag, Hildesheim, 1964

وعندما تصفّحت الكتاب أدركت على الفور أنّه يضمّ بين دفّتيـه كنـزا من المعلومـات حول الحيـاة اليـوميـة لشعب فلسطين وعاداته وتقاليده عند بداية هذا القرن وأحببت أن أعـرف المـزيد عن الرجل ومؤلّفاته، وكانت المعلومات التي جمعتها في هذا الشأن مذهلة.

وُلـد غوستـاف دالمان في مدينة نيسكي في منطقة دريزدن في سنــة 1855، وكانت عائلته تنتمي إلى جماعة بروتستانتية إنجيلية متديّنة تدعى «جماعة الإخوة».

وكانت أمّه متعلّقة بتعاليم هذه الجماعة. وترك هذا التعلّق أثراً باقيا على مجرى حياة دالمان وتعليمه وعمله. وقد وجّهه احـترامـه الكبير للكتاب المقدّس والأدبيات المتعلّقة به إلى دراسة اللغتين الآرامية والعبرية القديمة، وهو ما يزال بعدُ في المـدرسـة الثـانـويـة. وانصـرف بجدّ إلى دراسة هاتين اللغتين وآدابها ووضع مؤلّفات مهمّة في هذا المجال. وكان هذا يسـير جنبا إلى جنب مع عكوفه على دراسة الكتاب المقدس، والأدبيات المتعلّقة به، حتّى أصبح حجّةً في هذا الميدان؛ ثمّ أضـاف إلى دراسـة الآراميـة والعبرية دراسة اللغــة العـربيـة. وكـان هدفـه الأسـاسي في هذا كلّه هو التعمّق في فهم الكتـاب المقـدّس، بيد أنّه سرعان ما شعر أنّ هذا الفهم لايمكن إدراكـه بمجرّد قراءة الكتب، إذ لا بدّ لذلـك من معـرفة أرض الكتاب المقدّس نفسها ومعرفة سكانها ودراسة عاداتهم وممارساتهم اليومية، وكذلك تعرّف طوبـوغـرافيـة البلاد وجغرافيتها. وبهذا وحده يتسنّى فهم الكتاب المقدّس فهماً عميقا نابضا بالحياة. لايكفي الركون إلى الكتب القـديمـة ولايكفي تفحّص البقـايـا الميّتـة للأجيـال الغـابرة. لابدّ للمرء أن يراقب الحقيقة ويعيها، وأن يعرف الأشياء كما هي.. في البلاد نفسها ـ في فلسطين.

وسرعان ما تحقّق حلم دالمان في أن يدرس فلسطين وأهلها في بلادهم ذاتهـا. ففي سنة 1899 أتيحت له فرصة ذهبية عنـدمـا تلقّى منحـة للقيـام بجولة دراسية في فلسطين من كلّية اللاهوت بجامعة لايبزيغ التي كان قد التحق بها سنة 1887.

وفي سنــة 1899 وصـل إلى فلسطـين وانفتحت أمامه آفاق جديـدة. وبـدأ بذلـك بالفعـل فصل جديد في حياته وفي عمله. صحيح أنّ اهتمامه باللغات والآداب القديمة بقي معـه. ولكن منـذ هذا التـاريخ، وهو في الرابعة والأربعين

من عمـره، وحتّى آخـر سنيّ حيـاتـه أصبحت دراسة فلسطين، أرضاً وشعباً، شغله الشاغل وهمّه الأوّل. وكان تلميذا لا يكّل ومراقباً دقيق الملاحظة. استغرقت رحلة دالمان الأولى في فلسطين خمسة عشر شهرا قضى جزءاً منها في حلب وجنوب لبنان. أمّا فلسطين فقد جابها من عين جدي على البحر الميت إلى بلاط في جنوب لبنان، وشملت رحلته شرق الأردن أيضا. وخلال هذه الأشهر، سافر على الخيل، وعاش مع الفلاحين في بيوتهم ومع البدو في خيامهم وتعرّف أوجه حياتهم المختلفة واهتمّ بملابسهم وطرقهم في الغزل والنسيج وطهو الطعام، واللهو والأفراح وأساليب الزراعة والحرف اليدوية واللهجات والأغاني والأمثال، إلخ... وعلى هذا النحو وضع الأساس لمعارفه الواسعة في الحياة اليومية في فلسطين.

وسرعان ما ظهرت أولى ثمار الزيارة الأولى وهذه الثمرة هي «الديوان الفلسطيني» (5 الذي صدر في مدينة لايبزيغ سنة 1981. كان دالمان يعتقد أنّ دراسة الأدب الشعبي لشعب من الشعوب هي مفتاح مهمّ لفهم هذا الشعب وفهم عاداته وتقاليده ونفسيته، الخ؛ ولذلك كانت دراسة الأدب الشعبي الفلسطيني جزءاً مهمّاً من دراسته عن فلسطين؛ وهكذا عكف على جمع الأغاني الشعبية الفلسطينية وتسجيلها وترجمتها، وكذلك الامثال الفلسطينية. ونحن نجد في «الديوان الفلسطيني» نصوص مئات من الأغنيات الخاصة بجميع طبقات الشعب وفئاته. وتمّ جمع هذه النصوص، كاملة أو مختصرة، من مئات الأشخاص في أماكن عديدة: القدس والناصرة والبلقاء ومادبا وعجلون، إلخ. ورتّب دالمان المادة التي جمعها حسب المواضيع وسجّلها باللغة العربية ثم شفعها بترجمة ألمانية. وهكذا قدّم لنا في «الديوان» وثيقة فريدة وسجّل أغاني وأمثالا عديدة ربّما كان بعضها عرضة للضياع، لولا جهوده في الحفظ والتسجيل. وبذلك بقيت هذه المادة القيمة ذخرا للأجيال.

إنّ رحلة دالمان الأولى لفلسطين كانت مجرد بداية. وكان ينتظره من بعد عمل كثير. ومن حسن حظّ دالمان ـ وفلسطين ـ أنّه استطاع أن يعود إلى القدس بعد وقت قصير، ليقيم هذه المرّة فترة امتدّت زهاء أربعة عشر عاما.

أمّا الظروف التي ساقته إلى القدس هذه المرة فهي قرار اتّخذته الهيئات الحاكمة للكنائس البروتستانتيه المتّحدة في مؤتمرها الذي عقد في مدينة أيزناخ سنة 1900. فقد قرّر المؤتمر تأسيس معهد إنجيلي للآثار في الأرض المقدسة يكون مقرّه مدينة القدس. واختير دالمان بجدارة أولّ رئيس للمعهد في سنة 1902. وفي شهر أكتوبر من تلك السنة وصل إلى يافا وافتتح المعهد في القدس في السنة التالية (نوفمبر 1903) وما يزال المعهد قائما بعمله حتى الآن في ملحق لمستشفى أوغستا فكتوريا ـ المطّلع ـ على جبل الطور. وكان عمل دالمان موزّعا بين ادارة المعهد وإلقاء المحاضرات وتنظيم الندوات. وبعد مضي سنتين على إقامة المعهد ـ وابتداء من سنة 1905 ـ أصدر المعهد بمبادرة دالمان وإشرافه كتابا سنويا دُعي كتاب فلسطين السنوي (6. وكان بين نشاطات المعهد المبكّرة أيضا إنشاء متحف خاصّ ضمّ نماذج من الأدوات المنزلية والأدوات الزراعية والأدوات المستعملة في مختلف أنواع الحرف اليدوية في فلسطين، وكذلك من نباتات فلسطين جمعت ورتّبت فيه. وضمّ المعهد بطبيعة الحال مكتبة أضيفت إليها فيما بعد كتب كونراد شيك، وهو مهندس ألماني سويسري مشهور عمل في القدس مدّة طويلة، وتوفي فيها سنة 1901. وتضم المكتبة الآن زهاء عشرة آلاف مجلّد.

ونذكر في هذا الصدد أن معهد القدس للآثار حظر عليه إجراء الحفريات الأثرية في الأراضي المقدّسة، وكان عليه أن يتخلّى عن ذلك لجمعية فلسطين الألمانية (7. وبذلك اضطُرّ دالمان أن يحصر همّه في الآثار الظاهرة على سطح الأرض، مثل القبور الكائنة في ضواحي القدس والمباني القديمة والأطلال. وقد درس في هذا السياق أيضا تاريخ مشكلة المياه في مدينة القدس، وكذلك بعض الآثار القديمة وخصوصا مذابح البتراء وآثارها.

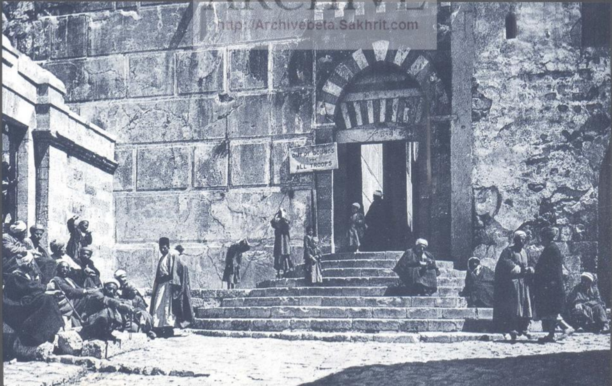
وبحكم عمله في المعهد قام دالمان برحلات عديدة في طول فلسطين وعرضها، خالط خلالها بسطاء الناس وتعلّم الكثير من أصدقائه الطيبين خليل ميكاييل من رام الله وعوده صالح من جفنه وعبد الوالي من حِزْما. وكان

5) Palästinensischer Diwan

6) Das Palästina Jahrbuch

7) Deutscher Palästina Verein




OUT OF BOUNDS
ALL TROOPS

يتحدث بكثير من الودّ والامتنان عن ذكرياته مع هؤلاء الناس الطيبين البسطاء. تحدث دالمان في مقدمة كتابه «العمل والعادات» عن رفيقه الأثير عبد الوالي فقال:

«. . . لن أنسى بصورة خاصة نصف البدوي عبد الوالي الذي كان دائما على استعداد لأن يحدثني بما حفل به كنزه الغني من المأثورات الشعبية. كان عبد الوالي من قرية حزما، لكنّه قضى شطرا من حياته بين بدو شرقي الأردن ولذلك فقد كان يحيط إحاطة تامّة بعاداتهم ومصطلحاتهم. وكنت أقابله غالبا في عين فارة (قرب القدس) حيث كان يزرع أرضا صغيرة مستأجرة قرعا وخيارا ويعيش مع ابنتيه - فقد كان أرمل - شتاءً في مغارة وصيفاً في كوخ حجري. وكان في نيته أن ينشئ مستوطنة ظريفة للمقادسة على العين المجاورة لأرضه، لكن الحرب دمّرت كلّ خططه. وقد وصلني نعيه في شهر مارس سنة 1916. كان عبد الوالي مسلما بالمعنى الحسن للكلمة، وكانت الفاتحة تتردّد على لسانه كلّما وقعت عيناه على منظر من مناظر الطبيعة، وهو يركض بجوار حصاني. ولاشك أنه كانت لديه توقعات صغيرة عندما كان يأتي إلى داري ببعض التين أو الخيار. بيد أنّه كان خدوما على الدوام ولا يهرف بما لايعرف، وكان قنوعا بما يُعطى له من أجر زهيد. وكانت تحيته الأخيرة لي قصيدة أملاها في 28 أبريل 1911 وجاء فيها:

يا راكب فوق الطاير (الطيارة) ساعة مايوصل كتابي
أجداك البرق الساير من فضلك ردّ الجوابي
دربك أبحر وجزاير اطلب مني لاتهابي
ريّض منشاني شويه والّلي بتريده عليّ
تبعت معك قصيدة قولي بصلاة كِنْ تم
خطّ القلم بجريدة على عيسى بن مريم
دالمان يكتبها بايده ياقري لا شفت الهم
ونسوّي بيوت الرسمية هادا اللي عليّ

(الخطاب في القصيدة موجه إلى شخص سويدي عرفه عبد الوالي سنة 1912 وسافر من فلسطين)

إنّ ندائي له «هيه يا عبد الوالي هيه» وأنا ادعوه لمرافقتي لدى نزولي إلى عين فاره لن يتردّد صداه بعد اليوم . . . لكن ذكريات العين. . . والوديان المحيطه بها. . . ستظلّ مرتبطة بشخصه إلى الأبد. فإليه وإلى جميع الأصدقاء في بيوت الفلاحين وخيام البدو أزجي واجب التحية:

لاتحسبوا إن طالت الغيبة نسيناكم
كلما طالت الغيبة ذكرناكم

وكان من نتيجة اتّصال دالمان المستمرّ بالناس العاديين أنّه تمكّن من جمع مادّة ضخمة حول الحياة اليومية والممارسة الشعبية في فلسطين، نشرها في مؤلفه الكبير «العمل والعادات» (4 الذي صدر بعد مغادرته فلسطين سنة 1914 بسنوات عديدة. إنّ نشوب الحرب العالمية الأولى في تلك السنة قطع عمله في القدس، مع أنّه بقي رسميا مديرا للمعهد حتى سنة 1917. وفي هذه السنة الأخيرة، عُيّن أستاذا ومديرا لمعهد فلسطين في جامعة غرايفسفالد الألمانية. وكانت لديه في غرايفسفالد سعة من الوقت ليقوّم المادّة التي جمعها في فلسطين ويرتبها، وليقوم بأعمال علمية أخرى. وظلّ يكتب لمجلّة الجمعية الألمانية لفلسطين، وهي المجلة التي بدأ يكتب فيها منذ سنة 1919، وواظب على الكتابة لها حتى سنة 1939.

وفي سنة 1921 وسنة 1925، سنحت له الفرصة لزيارة القدس لمدّة ستّة أشهر في كلّ سنة، واستغلّ الفرصة لفحص المادّة التي جمعها وإعادة النظر فيها، وإيجاد أجوبة لعدد من المسائل المتعلّقة بالعادات الشعبية والحياة اليومية وكذلك بطوبوغرافية فلسطين وجغرافيتها. وهذا المبحث الأخير كان موضوع كتابه الهام «القدس وضواحيها» الذي صدر في غوترسلو سنة 1930.

إنّ «القدس وضواحيها» كتاب مفيد للغاية ولاغنى عنه لدارسيّ القدس وضواحيها. وهو ثمرة ثلاثين سنة من جمع المادّة حول طوبوغرافية القدس، كما كانت قبل التغيّرات الكبيرة التي جرت في السنوات الستين الأخيرة، وهو بذلك يزوّدنا بصورة كلاسيكية للمدينة قبل هذه التغيّرات. ومن مزايا الكتاب أنه مذيّل بصور التقطها الطيّارون الألمان في أواخر الحرب العالمية الأولى. وتتجلّى في الكتاب معرفة المؤلّف العميقة بمنطقة القدس ممّا يثبّت أنّ إقامة دالمان في

8) Jerusalem und sein Gelände

القدس، منظر تاريخي عام لها من 1930

الخليل، صورة تاريخية للحرم من عام 1930

القـدس لم تكن على غير طائـل. ويصف المـؤلف في كتابه هذا بتفصيـل دقيق جبـال القدس ووديانها وطرقها وآثارها وقنـوات المياه والبرك فيها ويذكر أسماءها ويعطي معلومات كثيرة عنها في غاية الفائدة.

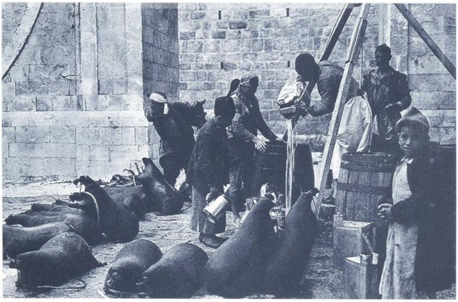
إنّ اهتـمام دالمـان بالطوبوغرافية جاء نتيجة لاعتقاده بوجود علاقـة وثيقـة بين الجغـرافيا والإثنولوجيا وعلم الآثار، بين الجغـرافيـا الطبيعيـة والجغـرافيـا التـاريخية. لكنّ دالمان لم يتناول قضايا تاريخية محدّدة مثل تاريخ الاستيطان أو زراعة الأرض او تحرّكـات السكّان أو تشكيل الكيانات السياسية أو الإقليمية عبر العصور. فالصورة التي يعطينا إيّاها صورة ساكنـة خالية من الحـركـة، وهمّه محصـور في زمن الكتاب المقـدّس. إنّـه لم يأخـذ في الاعتبار عنصـر التطـوّر والتغيّر والتفـاعـل المستمـرّ بين الإنسان والطبيعة. فالتغيّرات التي جرت طوال أربعة آلاف سنة قبل الكتاب المقدّس وبعده لم تحظ من اهتمامه إلاّ بأقلّ القليل. وبذلك فإن صورته عن المـاضي تفقـد التـوتّـر التـاريخي وتـتراجـع فيهـا ديناميكية التـاريـخ أمـام الطبيعـة السـاكنـة. وربّما كان هذا نتيجة لتـدريبـه وتعليمـه المبكّـر. وإذا كانت هذه حدوده فإنّ التفاصيل الكثيرة والمعلومات الضخمة التي زوّدنا بها تشفع وتبدي له العذر.

والآن نأتي إلى آخـر مؤلّفـات دالمـان وأعظمهـا وهو كتاب «العمـل والعـادات والتقـاليـد الشعبية في فلسطين»، وهو كتاب ضخم يشكّل موسوعة حقيقية للحياة اليومية لشعب فلسطـين. ويتألّف الكتـاب من ثمانيـة مجلّدات صدر أوّلها سنـة 1928 وصـدر آخـرهـا سنـة 1942 (بعـد وفاة المؤلف بسنـة) ويبلغ عدد صفحـاتهـا زهاء 2500 صفحـة. ولكي نأخذ فكرة عن الثروة الكامنة في الكتاب لنلق نظرة سريعة على محتوياته:

المجلد الأوّل وعنـوانـه «مجـرى السنة واليوم». ويتألّف من قسـمـين في مجلديـن مسـتقلين: القسم الأول الخـريف والشتـاء والقسم الثـاني: الربيع والصيف. ويتناول ـ هذا المجلّد موضـوعـات عديدة تتعلّق بكلّ فصل من الفصول الأربعـة مثـل النبـاتـات والأحـوال الجـوّية والزراعة وعالم الحيـوان والأمـراض والأوبئـة، والاحتفـالات والأعيـاد والعادات والأمثال الشعبية، إلخ.

المجلد الثاني: وعنوانه «الزراعة، طبيعة التربة وملكية الأرض».

المجلد الثـالـث: «من الحصـاد حتّى الـدقيق». ويتنـاول القـوى البشـرية العاملة في الزراعة والأدوات والتجهيزات التي تستعمل من أوّل الزرع حتّى إنتاج الدقيق.



القـدس، توزيع الماء على السقائين، من عام 1930

المجلد الـرابـع: «الخبز والزيت والخمر». وهو يصف جميع العمليات التي تؤدّي إلى إنتاج الخبز والزيت والخمر.
المجلد الخامس: «الغـزل والنسيج والأقمشة والملابس». وهو يصف إنتاج الأقمشة وأنواعها والملابس والأزياء المختلفة.
المجلد السـادس: «الحيـاة في الخيـام، المواشي والحليب والصيد وصيد السمك».
المجلد السابع: «الدار والدجاج والحمام والنحل». ويتنـاول هذا المجلّد أيضـاً أنواع موادّ البناء وأنواع الدور، والتقـاليـد الـدينية المتّصلة بالبناء والأثاث، إلخ، وكذلك بتربية الدواجن والنحل.
ويمكننـا أن نأخـذ فكـرة عن التفصيـلات الـدقيقـة التي عولجت بها مباحث الكتـاب من العنـاوين الفـرعيـة التي نجدها تحت العنوان الرئيسي: الشتاء:
مطرالشتاء، النقص في مطرالشتاء، مياه الشتاء، عواصف الشتاء الرعدية، برد الشتاء والتدفئة، البَرَد، رياح الشتاء، عالم النبـات في الشتـاء، الـزراعـة الشتـويـة، احتفالات الشتاء، واعياده، الشتاء في المأثورات الشعبية.. إلخ.
إنّ الموادّ التي جمعها المؤلّف كانت مذهلة في كلّ الأحوال. وقد كان يشير في كثيرمن الأحيان الى العادات والممارسات المـذكـورة في الكتـاب المقـدّس، وهو منطلق المؤلّف. لكنّ الموضوع الفعلي للكتاب إنّما هو الثقافة الشعبية الفلسطينية بوجـه عامّ. وقـد أصبح هذا أيضا هدفا مستقلا للمؤلّف. وكلّ من ينشد معلومات عن الحياة اليومية والثقافة الشعبية الفلسطينيـة عليـه أن يرجـع إلى دالمـان. ولّما كانت نواحٍ عديـدة من الحيـاة الشعبيـة في فلسطـين قد اختفت أو طمست بعـد التغيّرات المثيرة في السنوات الستين الأخيرة، وخاصّة بفعل البلاء والمصائب والتدمير العنيف الذي جرّه الغـزو الصهيوني، فإنّ كتاب «العمل والعادات» يكتسب قيمة مضاعفة بوصفه سجلاّ موثوقا وأمينا للماضي.
وهنـا ينشأ سؤال هام هو: إلى أيّ حال يحقّ لنـا أن نعـزو العـادات والممـارسات التي يمارسها شعب فلسطين العربي اليوم إلى الاقدمين من سكان البلاد وإلى أيّ حدّ تبيح لنا هذه العـادات والممارسات التوصّل إلى تفسيرات صحيحة للكتـاب المقـدّس قبـل ألفي عام؟إنّ هذا السـؤال مفتوح للنقـاش والجـدل. لاريب أنّ عناصر من الماضي تبقى في الحـاضـر بيـد أنّ المرء لا يستطيـع أن يُغفـل بشكـل من الأشكـال التغـيّرات التـاريخية التي جرت خلال ألفي عام وأثرها على تطوّر حياة الناس وعاداتهم. هل يستطيع المرء أن يركن إلى مقـولـة «الشـرق الهـامـد» ويتجـاهل القوى الـديـنـاميكيـة الفاعلة في التاريخ، قوى التغيير؟ خصوصا تلك التغيّرات الضخمة التي حدثت في فلسطين بعد ظهور الإسلام؟
لا شك أنّ دالمـان كان مزوّدا بمعــارف غزيـرة عن حيـاة سكّـان فلسطـين القـدمـاء، وكان يستطيع على ضوء ذلك أن يجري مقـارنـات بين المـاضي والحـاضر وأن يستخلص العـديـد من النتـائج الصحيحـة. لكنّ من الـواضح أنّ معـرفتـه لآداب الكتـاب المقـدّس كانت أكـبر من معـرفته للتـاريـخ الإسـلامي والتقـاليـد الإسـلامية. ولذلك فإنّ بعض تفسيراته جانب الصواب.
ولكن من الصحيـح أن يقـال أيضـا إنّ الناس يختلفون في التفسيرات والتعليلات. ويصدق هذا بشكل خاصّ حينما يتعلّق الأمـر بمـوضـوع شامـل فسيح وميدان رحب وسيع يتنـاول حضـارة شعب من الشعـوب بكـاملهـا، وحيثـما يقتضي الأمـر الإحـاطة بحضارات شعوب الشرق الأدنى جميعا. إنّ بعض القضايا التاريخية التي تناولها دالمان لم تزل دون حلّ حتى الآن.
وبعـد كلّ ما يقـال ينبغي أن يُقَـرّ لدالمان بالفضل لما تميّز به من دأب وجـدّ وأمـانـة ومعـرفـة غزيـرة، وأن يُقرّ بفضله خصـوصـا في وصفـه الشـامـل الأمـين للحياة الشعبية في الأراضي المقدّسة، كما رآها وخبرها، وهو وصف لم يدع فيه شاردة ولا واردة إلاّ أتى عليها بتفصيل وإحكام لا يجارى. وهنـا يكمن استحقـاق دالمـان للخلود. إنّ كتاب «العمل والعادات» قد حفظ كنزا حقيقيا من تراث شعب فلسطين يجتني منه الناس جيلا بعد جيل.
ولا بدّ لي أن أسجّل أخيرا ملاحظة أو ملاحظتين. إنّ المرء ليرى قيمـة إنسانيـة حقيقيـة في موقف دالمـان من الشعب الفلسطيني. لقــد نظر إلى حيـاة هذا الشعب وتقـاليـده باحترام لاتشوبه شائبة. كان بريئا من روح التعالي وعقدة التفـوّق التي شوّهت كتـابـات كثير من المـؤلّفين الغربيين الـذين ملؤوا صفحـاتهم بالقـدح والإهانات، ويكفي أن نورد هنا الفقرة التالية من كتاب «العمل والعادات».
«... وقبل كل شيء ينبغي على سكّان فلسطين العرب أن يقيمـوا بفخـر له ما يبرره، نصبـا لخصوصيتهم ولماضي

ثقافتهم بتقديم وصف أمين لها، ودون محاولة لكسوها بطلاء سطحي برّاق. ينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك قبل أن يقوّض النفوذ الأوروبي تراثهم ويدمره».

لقد كنت دائما أعتقد أنّ منجم دالمان الرائع للعادات والتقاليد الفلسطينية يجب أن يُستغل وأنّ كتابه «العمل والعادات» الذي يسهم بلا شك في تنمية الوعي الوطني الفلسطيني والشعور بالهوية الفلسطينية، يجب أن يُترجم إلى اللغة العربية، على الأقلّ بعد مرور حوالي ستّين سنة على صدوره وحوالي نصف قرن على وفاة مؤلّفه.

وفي 19 أغسطس سنة 1941 توفي غوستاف دالمان في بلدة هيرنهوت في منطقة زاله، عن 87 سنة. وقد حُفظ اسمه في اسم «معهد فلسطين بجامعة غرايفسفالد»، الذي أعيدت تسميته فأصبح يُدعى «معهد غوستاف دالمان الخاص بفلسطين».

وفي هذا المعهد نجد اليوم أوراق دالمان ومخطوطاته ووثائقه وكلّ تراثه الغني.

ويولي المعهد تراث دالمان عناية كبيرة. فبدعم من المعهد تمّت إعادة نشر بعض كتبه، فقامت دار جيورج أولم للنشر في هلدسهايم بنشر طبعة ثانية من كتاب «العمل والعادات» سنة 1964، ومن «كتاب القدس وضواحيها» سنة 1972. وفي سنة 1987 صدر عن المعهد كتاب جديد عن حياة دالمان وعمله بين سنتي 1855 و 1902 من تأليف يوليا مانشن.

وإجمالا لما تقدّم نقول في الختام إنّ حياة دالمان العلمية كانت حياة فريدة في بابها وإنّ دالمان كان ظاهرة مستقلّة في عالم العلم - فهو قد شق بنفسه طريقه الخاص بالبحث. وإذا كانت البيئة التي انتمى إليها - «جماعة الإخوة» - قد مهّدت أمامه طريق التطوّر ضمن شروطها الخاصّة، فإنّ الأسلوب الذي تناول به موضوعه كان أسلوبه هو، وهو أسلوب تميّز بواقعيّته القويّة وشغفه النادر بالتفاصيل الدقيقة واهتمامه المتعدّد الجوانب بعدّة علوم في وقت واحد وبجَلَد العالم الذي لا يكّل. وعلى هذا النحو بنى دالمان أبحاثه عن فلسطين لبنةً لبنةً، ومرحلةً بعد مرحلةٍ، وبذلك أدّى خدمة جلّى لفلسطين وتراثها وصنع لنفسه مجدا علميا يبقى على الزمان. ●

الكتابة اللاتينية لبعض الأسماء غير العربية الواردة في النصّ:
Eisenach; Gage, W.L.; Greifswald; Gütersloh; Herrnhut; Mannchen, Julia; Mednikov, N.; Ritter, Carl; Robinson, Edward; Röhricht, Reinhold; Saale; Seetzen, Ulrich; van Berchem, Max



صورة تاريخية من عام 1930 لقرية سلوان التي عُثر فيها على نقوش هامّة

بعثة استكشافية ألمانية في المغرب العربي في القرن الثامن عشر

منير الفندري

من بين الرحلات الاستكشافية الأوروبية التي استهدفت بلدانا عربيّة وبقيت إلى اليوم مجهولة أو تكاد، رغم ما تكتسيه من أهمية، تلك الرحلة التي قام بها فيما بين 1731-1733 الى كل من الجزائر وتونس وطرابلس العلامة الألماني هبنشترايت (1702-1757) رفقة ستة زملاء من شتى الاختصاصات وبأمر من أمير مقاطعة سكسونيا وملك بولونيا في نفس الحين، فريدريش أوغست الأول، المعروف بأوغست القوي.

لقد كانت حقا رحلة جريئة مثيرة، توحي، بالنظر إلى هدفها الجغرافي البعيد مسافة وحضارة وتأهل أفرادها العديدين تأهلا علميًا وفنيا وتقنيا، وبالنظر إلى قيمة باعثها وجاهة، بتلك التي تلتها في الستينات من نفس القرن الثامن عشر ـ قرن عصر التنوير الأوروبي ـ وقصدت الجزيرة العربية ولم يعد منها على قيد الحياة سوى كارستن نيبور. ولئن ذاع صيت هذه الرحلة وغدت مرجعا، في حين لم تحظ رحلة هبنشترايت بما يحقّ لها من شهرة ودخلت طيّ النسيان، فذلك يعود في رأينا بالخصوص الى ما اعتنى نيبور بنشره من وصف دقيق لمجرى هذه الرحلة ومعلومات قيمة رائدة وثرية حول مسرحها. أما عن رحلة هبنشترايت المغاربية فلم تفض للأسف الشديد الى مثل هذا. وكل ماوصلنا من النصوص الصادرة عنها رأسا أربعة تقارير من مجمل ستة، بعث بها هبنشترايت إلى مولاه ومفوّضه أوغست القوي ليحيطه علما بكل ماطرأ وبما سمع وما رأى. وقد نشرها يوهان برنولي عام 1783 فور عثوره صدفة على نسخ من المخطوطات الأربعة. وفي سنة 1865 تمّ اكتشاف ملف الأرشيف الذي يحتوي على التقارير الستة الأصلية بالاضافة إلى شتى الوثائق الادارية المتعلقة بتراتيب هذه البعثة ونفقاتها.

إلاّ أنّ صاحب الاكتشاف هذا اكتفى بإبراز أهم ما ورد في التقريرين غير المنشورين باقتضاب. وعلى هذا الدرب سار باحث آخر تيسّر له العثور على مخطوط يوميات عضو ثان هام من أعضاء البعثة، هو عالم النبات الشهير كريستيان غوتفريد لودفيج (1709 - 1773). وها نحن الى يومنا هذا في انتظار نشر هذه الوثائق الثمينة حتى يستفيد منها التاريخ المغاربي عامة ودراسة تاريخ العلاقات الثقافية الألمانية العربية خاصة.

كان الحافز الأساسي من بعث هذه الرحلة العويصة رغبة الملك أوغست القوي في إثراء مجموعاته الفاخرة من العينات الحيوانية والنباتية والصخرية بنماذج نادرة من حيوانات القارة الأفريقية ونباتها وصخورها وغيرذلك من الطرائف التي من شأنها أن تزيد في إبراز عظمة هذا العاهل.

وبمهمة جلب كل هذا بالخصوص، انطلقت في أواخر أكتوبر 1731 من مدينة لايبزيج بعثة متكوّنة من سبعة رجال، هم علاوة على رئيسها هبنشترايت وعالم النبات لودفيج: الرسام شوبرت والمشرّح شولتسه والمصور ابرسباخ والخبير في الميكانيكا بوخنر والجنان تران، وهو من رعايا أمير بادن دورلاخ، وقد انضم الى الفريق في مدينة كارلسروهه، وتوجهت القافلة صوب ميناء مرسيليا للإبحار إلى الجزائر.

وكان من الضروري أن تتزوّد هذه البعثة فيما تزودت به بحصانة السلط الفرنسية وبخطابات توصية منها، نظرا لعدم وجود معاهدات سلمية بين الحكومات المنضوية تحت لواء «الرايش الألماني» (عدا النمسا) ودول شمال افريقيا، المعبر عنها آنذاك من وجهة نظر الغرب «بدول القرصنة».

فحتى معاهدة الصلح التي أبرمت في حوالي 1725 بين كارل السادس ملك النمسا وامبراطور «الرايش الألماني» في

نفس الحين والدول المذكورة لم تُجْدِ الرعايا الألمان نفسهم نفعا فظلوا هم وسفنهم «مباحين» في نظر القرصنة المغاربية .

ولئن سلمت البعثة الألمانية من هذا الخطر فإنها لم تسلم من هول عاصفة هوجاء أذاقت أفرادها الأمرّين وكادت تقضي على السفينة الأنكليزية التي امتطوها يوم 24 يناير 1732 . وكان الوصول إلى الجزائر أخيرا في السادس عشر من الشهر الموالي . ومنذ ذلك اليوم تواصلت إقامة فريق الرحالة الألمان ببلدان المغرب العربي إلى غاية منتصف أبريل 1733 ، أي أربعة عشر شهرا بتمامها . وما كانت تقف عند هذا الحدّ لو لم يبلغها نعي أوغست القوي مصحوبا بأمر العودة فورا . بيد أن البعثة النشيطة كانت قد أدّت واجبها على أحسن وجه وحقّقت الكثير مما تكفّلت به من جمع العينات الطبيعية والتحف الأثرية والمعلومات التاريخية والجغرافية والاجتماعية والإثنولوجية وغيرها ، بعد أن مسحت فضاء شاسعا ، غريبا عنها تمام الغربة ، لا من حيث الطبيعة والمناخ فحسب ، بل كذلك وبالأخصّ بشريا وعقائديا وحضاريا بوجه عام ، فضاء ظل الغرب طويلا لا يرى له اسما أنسب من «بلاد البربر» Barbarei .

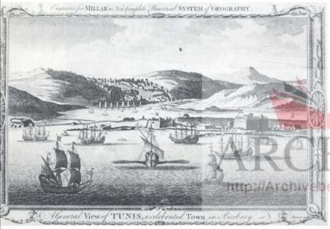
فبعد أن قضى هبنشترايت وجماعته نحو أربعة أشهر في الجزائر العاصمة ، تخللتها جولة بشهر ونيّف في المنطقة الجبلية بين البليدة ومدية ومليانة (بايليك طيطري) ، غادروها في منتصف يونيو ، تاركينها في حالة طوارئ من جراء حملة إسبانية عليها (وهو مازاد في صعوبة مهمتهم ، إذ كثيرا ما تعرضوا في بعض البقاع ، وهم منهمكون في الرسم والتقييد ، الى الشتم والتعنيف من قبل الأهالي ، إما باعتبارهم نصارى كالإسبان أو للشك في كونهم جواسيس في خدمة العدو) . ثم تحولوا إلى إيالة تونس ، مرورا بعنابة وقسنطينة ، فدخلوها في أواخر شهر يوليو واستقروا أولا في العاصمة في ضيافة القنصل الفرنسي .

ولما كان الباي الحاكم آنذاك (وهو حسين بن علي ، مؤسس السلالة الحسينية التي تعاقبت على عرش تونس الى غاية 1957) كان امتنع في البداية عن الإذن لهم بالسياحة عبر القطر ، بدعوى الخشية عليهم من ردود فعل بعض الأهالي المتحمسين لما يحدث في الجزائر ، أزمع هبنشترايت على استغلال فترة الانتظار بالتحول الى طرابلس ومتابعة مهمّة



أوغست القوي ، أمير سكسونيا وملك بولونيا ، صورة له بريشة لويس دي سلفستر من حول عام 1720

البحث هناك. فأبحر في سبتمبر، مخلفا في تونس زميله لودفيج. وأقام هناك ردحا من الزمان وزار آثار لبدة وتجوّل طويلا في بعض أرجاء إقليم غريان وجمع ما تيسر له جمعه ثم قفل راجعا (في ديسمبر) الى تونس التي لم يصلها ثانية إلا في غرة فبراير 1733، نظرا لتوقفه زمنا بجزيرة مالطة.
وفي الأثناء كان لودفيج قد توصل إلى حمل باي تونس على الترخيص للبعثة الألمانية بالتنقل داخل البلاد ومواصلة أبحاثها وتنقيبها في كامل أرجائها. وانطلقت الرحلة إبان عودة الجماعة من طرابلس فكانت مغامرة جريئة عجيبة حافلة بالأحداث والاكتشافات، لم يقتصر فيها أصحابنا على اتّباع الطريق الساحلية، الهيّنة نسبيا، بل توغّلوا غربا وجنوبا إلى أماكن نائية لم تطأها قدم أوروبية قبل ذلك ولابعد على مدى قرن أو أكثر. ولم يبالغ هبنشترايت حين كتب لمولاه بشيء من الاعتزاز، إبان عودته الى تونس في منتصف شهر مارس (وماكان يعلم أن المرسل إليه قد وافاه الأجل منذ غرة فبراير) مايلي:
«لقد عدنا سالمين إلى تونس بعد أن قمنا بكل ما في وسع سائح أجنبي أن يقوم به في بلد غير آمين وتوغلنا في السير ستين ميلا ألمانية جنوبا حتى بلغنا آخر نقطة آهلة من (شمال) افريقيا وأتينا بذخيرة هامة من النباتات النادرة والأحفوريات والكتابات الحجرية الرومانية العتيقة وبمعلومات حول عادات هذه الشعوب وتقاليدها.»
لا شك أن هبنشترايت ورفقاءه أقبلوا على بلدان المغرب العربي بتصوّرات معينة حولها وحول سكانها، هي قبل كل شيء خلاصة ما أفادتهم به المراجع والمصادر الألمانية - بل قل الأوروبية، لافتقار الألمان حينذاك إلى مثل هذه الأعمال إن لم تكن مترجمة - المتوفرة في ذلك الوقت حول الموضوع والتي لابد أنهم انكبوا عليها قبيل مجيئهم. وقد تميزت هذه المؤلفات بضآلتها كمّا وسقمها كيفا وارتكزت بالخصوص على نصوص قديمة بالية ربما كان أحدثها ما وضعه المغربي المرتد، المشهور بليون الإفريقي، من «وصف لإفريقيا»، في بداية القرن السادس عشر، أوما ورد عن قساوسة اضطلعوا بمهام افتداء أسرى القرصنة (أو «الجهاد البحري»)، أو كذلك ما نشره بعض هؤلاء الأسرى أنفسهم. فكانت بالتالي شهادات متحيزة، تكاد تخلو تماما من الموضوعية والحكم القويم، بل نجدها تقوم على مشاعر الحقد والكراهية حيال هذه الشعوب والحكم عليهم حكما مطلقا بكونهم قراصنة بشعين و«كفرة» متعصبين وجهلة همجيين... يخضعون لطغاة ظلاميين.
فلا غرو أن لم يُفضّل مصطلح آخر للدلالة على هذه المنطقة غير لفظة «بربراي» (Berberei/ Barbarei) ولفظة «بربراسك» (Barbaresken) لتسمية أهلها؛ ففي كليهما كلمة «بربار» التي كرسها الفكر التنويري الغربي أجدر نقيض لكلمة «متحضر» أو «متمدن».
كيف إذن رأى أعضاء البعثة الألمانية هذه البقاع ومجتمعها وكيف صوروها؟ لا يسعنا هنا إلا أن نكرر أسفنا أن لم



منظر عام لمدينة تونس في صورة نحاسية لغيورغ هنري ملّر، من عام 1782

يصلنا من نصوص الرحلة سوى تقارير رئيسها الأربعة بالخصوص، فلنعتمدها للإجابة عن هذا السؤال.
أول ما يلفت الإنتباه في هذه التقارير ما تتّسم به بديهيا من تحرر واضعها الفكري وعدم تقيّده بالأحكام المسبّقة. وقد يكون توجيه خطابه رأسا إلى ملكه النيّر فرض عليه توخي الموضوعية أقصى مايكون. لكننا نلمس في الكاتب - وهو الذي سيتفوق لاحقا في علم الطب إلى أن يصبح عميد الكلية بلايبزيج - ثقافة مرموقة ونزعة علمية رفيعة وحذقا بيّنا في التفاعل مع الغريب، مع تروّ في تقويم الملحوظ. وهي لعمري من السمات التي قل أن نجدها لدى من سبقه ومن تلاه في زيارة نفس البقاع والكتابة عنها.



مشهد عام لمدينة القيروان من ناحية حوض الماء الذي يظهر هنا، خلافاً للواقع، في شكل مستطيل. صورة على المعدن لشارل دي كاسيرون من حول عام 1845

ويتجلى موقف هبنشترايت هذا منذ البداية حين يتطرق الى شرح تسمية الجزائر وما جاورها «بربراي» (أو بلاد البربر). كما ذكرنا، فيقول:

«تعرف هذه المملكة عامة «ببربراي» لا كما تفهم هذه اللفظة عندنا، لأن أناسا متوحشين وضارين يسكنون هذه البلاد - إذ يتحتم أن ننصف القسط الأوفر من سكّانها ونعترف لهم بتبجيلهم للأجانب وحبهم لأبناء أمتهم - بل باعتبار أن «البربر» هم سكان الفيافي والقفار أو لأن الرومان كانوا قديما يسمون كل من استعصت عليهم لغته (بربر)».

وقد سبق أن أنصف الرحالة هؤلاء الأهالي بقوله إنه منذ وصوله تيسّر له القيام بمهمته داخل أسوار المدينة وخارجها دون أدنى مضايقة من قبل «تركي أو مغاربي»، مضيفا: «أكثر من ذلك فقد قوبلنا ببالغ التقدير بوصفنا أجانب وبوصفنا «بربيارس» (Barbieros) وهي اللفظة التي يطلقها علينا سواد الشعب لأنهم عادة ما يشاهدوننا محمّلين بالأزهار والأعشاب التي غدت لنا بمثابة تصريح أمان.» ويعود ضمن تقرير ثان إلى هذه الظاهرة ليقول: «لقد استنتجت أن حفنة من الأعشاب توازي جواز مرور شامل، إذ يعتبر جامعها «بربيارو» - كما صرت أسمّى باستمرار - أي طبيب حريّ بالإكرام والتقدير بموجب علمه ومعرفته». وبالفعل يتضح أن خبرة البعثة الألمانية بالأعشاب وتخصّص رئيسها في الطب عادا عليها بنفع جمّ وفتحا لأعضائها أبوابا عديدة. وقد لمسوا هذه الحظوة بسبب علمهم منذ وصولهم ولقائهم الأول بحاكم الجزائر عابدي داي الذي حالما تيقّن من صفاء نواياهم ومن أنهم قدموا من بعيد «ليشرّفوا قطره بأبحاثهم» أكد لهم «بواسطة ترجمان أن قطره مفتوح أمامهم وأنه يضمن لهم الحماية» وهو ما حصل. فلم يقتصر على تيسير مهمتهم داخل التراب الجزائري بل زودهم برسائل إلى كل من باي تونس وباي طرابلس، يوصيها فيها - حسب ترجمة للخطاب الموجه إلى الثاني - برعاية «هذا المسيحي الذي جاء صحبة رفاقه

لجمع الأعشاب والبحث عن أدوية جديدة». ولئن اطمأن أحمد بن يوسف قرمنلي، باي طرابلس، حالا لهذه التوصية وأعرب على الفور عن امتنانه «بأن يكون في قطره ماهو جدير باهتمام علماء أجانب». وحبا البعثة دون تردد بالحماية والدعم، فإن حسين بن علي، باي تونس، أبدى شكوكا واستغرب أن يتكلّف صاحب ملك تجهيز بعثة وإرسالها إلى أطراف الدنيا، لا لشيء إلا لجلب أعشاب وشظايا صخر. ولعل الفريق الألماني لم يخطئ حين عزا امتناع هذا الباي في البداية عن السماح لهم بالتجوال عبر البلاد - كما أسلفنا - الى هذه الشكوك، لا سيما أن حسين باي كان آنذاك يتوقع شرا من الجزائر لأن ابن أخيه الذي ثار عليه قبل سنوات التجأ الى هناك ومضى ينتظر ساعة عودته إلى تونس مدعوما بجيش جزائري ليجلسه على العرش، وهو ما تحقق سنة 1735 . لكن سلطان العلم مهّد السبل أخيرا. فبعد أن تحقق الباي من نزعة لودفيج العلمية الصرف - حين كان هبنشترايت في طرابلس - خطر له أن يستفيد من علمه وكلفه بسبر منجم للشبّ اكتشف حديثا بمنطقة جبلية غير بعيدة عن مدينة تونس وايجاد طريقة ناجعة لاستخراج هذه المادة التي كانت تستورد. وكانت هذه مناسبة للودفيج ولهبنشترايت، لما التحق به، للدخول في علاقة عملية مع حسين بن علي باي الذي استقبلهما مرارا، للاطلاع على نتائج بحوثهما، لا في قصر باردو فقط، بل حتى في القيروان، المدينة المقدسة التي ظلت حتى القرن التاسع عشر محرّمة على غير المسلمين.

ومن الطريف أيضا ضمن هذا اللقاء الفريد الشيّق بين الباحثين الألمان وأصحاب النفوذ المغاربة، قبل قرنين ونصف، أن مواهب البعثة الفنيّة لقيت بدورها اهتماما وتلقّت أكثر من طلب. من ذلك أن أحمد قرمنلي طلب من الرسام شوبارت أن يصوّره. فكان له ذلك. ويصور هبنشترايت من جهته دهشة باي طرابلس وذهوله لما أبصر ذاته مشخصا على القماش في أتم شبه.

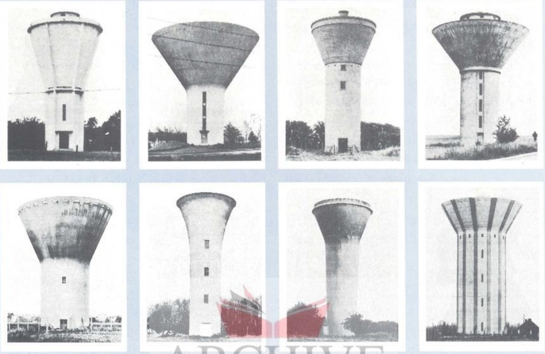
ولم يندهش هبنشترايت كثيرا لهذا الخرق للتقاليد الإسلامية التي كان يعرف عنها إعراضها عن تشخيص البشر. فقد سبق له أن سجّل على هذا الحاكم «البربراسكي» - كما كان يراه - تفتّحه وثقافته النسبيين. ناهيك أنه خاطب الزائرين الألمان بلغة إيطالية سليمة وسألهم عن بلادهم وأحوالها: كما نوّه بتحرره الفكري وتسامحه الديني، بحجة أنه وجد فيه مسلما لا يترفع عن معاقرة الخمر ولا يحرم غيره من شربها!

وتزخر تقارير هبنشترايت بالمواقف الطريفة التي تصور لنا هؤلاء الغرباء في تفاعلهم مع المجتمع المغاربي، في مدنه وأريافه، وفي عصره ذاك، فتعكس لنا صورة حية لهذا المجتمع وجوانب من بيئته، في فترة تعوزنا منها على هذا الصعيد الوثائق الأمينة والشهادات الصادقة، وتبرز في نفس الحين التباين الحضاري الذي كان يفرق بين الطرفين المتقابلين في غضون هذه الرحلة.

ولئن سجل هبنشترايت أمورا كثيرة تدل على «تأخّر» مسلمي شمال إفريقيا علميا وتقنيا فإنه يظل دوما، كما أشرنا، ملتزما بالموضوعية والاعتدال. فمن المواقف الوارد ذكرها ماينمّ عن نفور تعرّض له الزائرون الألمان، بوصفهم غرباء جنسا ودينا، من قبل بعض الجماعات الذين ارتابوا في أمرهم وفي سرّ تصرفاتهم، لاسيما أن الزيارة وافقت، كما قلنا، الحملة الإسبانية على وهران والجزائر، مما أدى بلا شك الى تأجج الحزازات القديمة بين مسلمين ومسيحيين. ويسرد هبنشترايت ما واجهه وأصحابه من خطر، سواء في البليدة وقسنطينة أو في باجة بتونس أو في طرابلس، لكنه لا ينساق في التشنيع والتجريح، كما تعودنا ذلك من غيره من الرحالة الأوروبيين، بل إننا نراه مثلا يعترف للجزائريين بقدرتهم على الدفاع واستبسالهم في الذود عن «حريتهم». كما نجده في ختام الرحلة الشاقة عبر البلاد التونسية يشيد بكرم الأهالي وحسن ضيافتهم.

وبهذا الانطباع الطيب - إجمالا - انتهت رحلة هبنشترايت وأصحابه في البلاد المغاربية. ولئن اتضح أن لودفيج دوّن في مذكراته، حالما امتطى متن السفينة التي بارحت بهم تونس في أبريل 1733 العبارات التالية: «حمدت الله الذي مكنني من مغادرة هذا الساحل بكل سرور»، فذلك يعود بالخصوص إلى التعب الشديد الذي لقيه من جراء المناخ وسوء التغذية فأثّر في صحته دون رفاقه. ●

الكتابة اللاتينية لبعض الأسماء غير العربية الواردة في النصّ:
Buchner, J. H.; Ebersbach, Chr. A.;
Hebenstreit, Johann Ernst; Ludwig, Christian Gottfried;
Schuberth, Chr. Fr.; Schulze, Z.Ph.; Thran, Chr.



بيرند بيشر وزوجته هيلا، خزّانات الماء. أنتجا هذه الأعمال في فرنسا من 1972 إلى 1973

بيرند بيشر وزوجته هيلا يحصلان على جائزة الأسد الذهبي

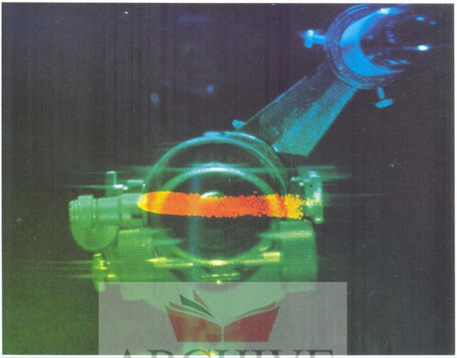
يعيش هذان الزوجان في مدينة دوسلدورف ويحترفان التصوير الفوتوغرافي؛ وجاء منحهما الجائزة ضمن اهتمام واسع بالأحداث الألمانية خلال المهرجان الرابع والأربعين للفنون التشكيلية والموسيقى والسينما الذي ينعقد كلّ سنتين بالبندقية. ونشير إلى أنّ هذا المهرجان لم يَخْلُ هذا العام - على عادته - من الفضائح، لما جاء في عمل مجموعة غران فيوري من الولايات المتّحدة من تجريح للبابا مزعوم.

ونذكر بأنّ رئيس الوزراء الإيطالي جيوليو أندريوتي افتتح المهرجان الذي استمرّ في حدائق البندقية إلى الثلاثين من سبتمبر الماضي، بمساهمة أكثر من 250 فنانا من 47 دولة. وكان في المهرجان معرض خاص ببرلين، إضافة إلى جناحي جمهورية ألمانيا الاتحادية والجمهورية الألمانية الديمقراطية، ممّا جعل الاهتمام بالأحداث الألمانية كبيراً.

اشتهر الزوجان من قديم بصورهما للمنشآت الصناعية من منطقة الرور، صَوَّرا الأفران والخزانات ومصانع الفولاذ، وغيرها. وتتميز أعمالهما بالموضوعية والجفاف العلمي، وتتّصل بمدرسة الباوهاوس وبتيار «الموضوعية الجديدة».

وزاد في نجاح الجناح الألماني أن حصل راينهارت موخا، وهو نحّات من دوسلدورف، على جائزة خاصة لعمله «جهاز ألمانيا».

هذا، ولم يفاجأ أحد بحصول الجناح الأميركي على الأسد الذهبي بفضل مساهمة الفنانة الأميركية جيني هولتسر التي أعجب الزوار كثيرا بكتاباتها ونقوشها على الحجر والبرونز.



يفنّ، «التلسكوب/ الشهاب»

فنّ «الهولوغرام»

اقتنت ولاية بادن فورتمبيرغ مجموعة من أهمّ مجموعات صور الهولوغرام في العالم، ووضعتها - على سبيل الإعارة - تحت تصرّف مركز الفنون وتكنولوجيا المعلومات الذي بكارلسروهه. أمّا «الهولوغرام» فصورة صغيرة ثلاثية الأبعاد، تصنع من البلّورات عادة وتُستخدم لتخزين المعلومات. وقد اختُرعت هذه الصور في 1948، لكنّها لم تنتشر إلّا في السنين الأخيرة بعد أن استُخدمت على الشيكات وبطاقات الدّين حماية من التزوير، وأصبح تشكيل هذه الصور فرعاً من فروع الفنّ. وتشمل المجموعة المذكورة نحواً من خمسمائة صورة، ويعود تشكيلها وجمعها إلى ماتياس لاوك القاطن بكولونيا - بولهايم، حيث المتحف الهولوغرافي الذي كان، إلى مدّة عشرة سنوات، المتحف الوحيد من نوعه في أوروبا. وأنفس قطعة في المجموعة المذكورة هي الصورة الثلاثية الأبعاد «مشهد غطّاس»، لشركة ماك دونل دوغلاس الأميركية من عام 1972.

هذا، وذكر مركز كارلسروهه للفنون وتكنولوجيا المعلومات أنّه اتّفق مع مؤسّسة غوغنهايم النيويوركية على برنامج تعاون يشمل - من جملة ما يشمل - عروضاً مشتركة ونشرات وإعدادَ برنامج دراسي لفنون القرن العشرين ووسائل الإعلام فيه. وذكر في هذا المجال مشروعٌ أوّلُ، يكون في 1993، وهو معرض في متحف غوغنهايم النيويوركي لفن الفيديو المعاصر.

قراءات لأدباء عرب في برلين

ريناته فرانكه

قال غوته مرّة «اعترفوا بأنّ شعراء الشرق هم الأقدر . . .». واتّخذ قول غوته هذا عنوانا لسلسلة من الاجتماعات الأدبية والمناقشات نظّمتها «دار الثقافات العالمية» البرلينية بالتعاون مع «الحلقة الأدبية» بقصد التعريف بأدب الدول الإسلامية. وإنّما تميّزت تلك الاجتماعات الثقافية بأن يُقرأ من نصوص الأديب أو شعره، ثمّ يدور النقاش. وتتيح هذه السلسلة للشعراء والكتّاب ورجال الصحافة فرصة الإخبار عن بلدانهم على نحو مباشر.

وقد قُسّمت السلسلة أربعة أقسام: قسمين خصّصا في ربيع 1990 لبعض الأدباء العرب والفرس، وقسمين آخرين في بداية 1991 لأدباء من تركيا ومن البلاد الناطقة بالأوردو.

كانت الاجتماعات الأدبية المخصّصة للأدب الفارسي في بداية أبريل 1990 قُدِّم لها تقديما جيّدا في الشعر الفارسي الذي كان عموما الموضوع الرئيسي في القراءة والنقاش.

ثمّ كانت القراءات العربية في آخر أبريل، وكانت من العربية أصلاً ومن الترجمات، ساهم فيها عدد من الأديبات والأدباء، كان منهم أليفة رفعت وجمال الغيطاني (تمثيلا لبعض النشر من مصر)، وآسية جبّار التي قرأت بالفرنسية (تمثيلا لنشر المهجر)، وليلى العثمان (نثر من الكويت). وساهم الشاعر عادل كراشولي بتعريفه بأعمال الأديب عبد الرحمن منيف، ثمّ قرأ نثرا من سوريا. وعادل كراشولي هو من أصل سوري يعيش بلايبتسيغ حيث يدرّس في جامعتها منذ 1968. وقد عرض عادل كراشولي في سلسلة أخرى من القراءات نظمتها «دار الثقافات العالمية» أشعارا من تأليفه.

ونشير إلى نقاش مفتوح دار ببرلين حول «دور الأديب في المجتمع العربي» وساهم فيه الأدباء المدعوّون، ولعلّ ما قاله عبد الرحمن منيف يلخّص رأي الحضور، لكن في صيغة شعرية، قال: «الكاتب رائد يحمل روحه على كفّه ليمزّق حجب الظلمات».

وبعد انتهاء القراءات في برلين وُجّهت دعوة إلى أليفة رفعت بزيارة بون حيث قرأت من قصّتها «عالمي المجهول»(1). وقد تُرجمت هذه القصّة إلى الألمانية ونشرت في مجموعة «زمن زهرة الياسمين». وقد قرأت الممثّلة إيفا ـ ماريا فاغنر من هذه الترجمة لمن لا يعرف العربية من الجمهور.

(1 لسنا متأكّدين من صحّة هذا العنوان، إذ الأصل الذي لدينا ألماني ترجمناه هكذا.

مهرجان الشباب

احتُفل في أغسطس 1990 بالعيد الأربعين لمهرجان الشباب الدولي الذي انعقد تحت شعار «أربعون عاما من التدريب المسرحي لشباب العالم». وصار، من قديم، هذا المهرجان الذي ينعقد في مدينة بايرويت الألمانية منطلقا لأصحاب المواهب، ففيه تدرّب في عام 1967 فاسلاف هافل رئيس تشيكوسلوفاكيا الحالي، وقد كان وقتئذ مؤلّفا غير معروف، فقضى ثلاثة أسابيع من التدريب لدى مشاهير قوّاد الموسيقى والمخرجين والمؤلفين.



الأديب والمخرج السينمائي
ألكسندر كلوغه

ألكسندر كلوغه يحصل على جائزة ليسنغ

حصل على جائزة ليسنغ لعام 1989 التي تمنحها مدينة هامبورغ ألكسندر كلوغه، وهو مخرج وكاتب معروف. وترجع هذه الجائزة إلى عام 1929، إذ قُرِّر تأسيسها بمناسبة الذكرى المائتين لمولد غوتهولد أفرايم ليسنغ، فتُمنح مرة في أربع سنوات، وتبلغ قيمتها عشرين ألف مارك.

أمّا ألكسندر كلوغه، فهو قديم الشهرة في مجال إنتاج الأفلام وإخراجها، وقد حصلت أفلامه على جوائز كثيرة. وهو إلى ذلك نشط في تحقيق مطالب المنتجين السينمائيين، وكان الناطق بلسانهم، فطالب بالإجراءات الكفيلة بدعم النشاط السينمائي وإنمائه. ثمّ إنّ كلوغه كاتب معروف، وهو عضو في منظمة PEN الألمانية، وعضو في المجمع الألماني للغة والأدب الذي مركزه بمدينة دارمشتات، وعضو بأكاديمية الفنون في برلين.

موســوعــة الأدب الألمـاني في سبعين مجلداً

يأمل الأستاذ هانس ـ غيرت رولوف أن يضع في ظرف نحو خمس عشرة سنة موسوعة للأدب الألماني بأكمله. ورولوف هذا أستاذ في اللغة الألمانية وآدابها في جامعة برلين الحرة متخصّص في المرحلة الوسيطة مابين القرنين الثاني عشر والخامس عشر. والمقرّر أن يُجمع في المجلدات السبعين جميع المعلومات الأدبية: من أولى محاولات النقل من اللاتينية إلى مبتذل الإنتاج العصري، مع تسجيل للمؤلّفين والمصادر. والملاحظ أنّ عملا من هذا النوع لم ينجز بعد، مع أنّ معجم «نبذة من تاريخ الأدب الألماني» قد شُرع في تأليفه قبل 130 عاما، لكنّ العمل فيه لم ينته بعد إلى زمن وفاة غوته، هذا إضافة إلى أنّ ما أنجز من المعجم في القرن التاسع عشر قد بات نفسه قديما. أمّا فيما يخصّ هذه الموسوعة الجديدة، فإنّ الخمسة عشر عاما المقررة لها ليست في أيّ حال بالمدّة الطويلة، إذا علمنا أنّ الدرس سيشمل من القرن العشرين وحده نحواً من ثمانية عشر الف مؤلّف بكلّ ما أنتجوه.

ولم يحصل مركز الجامعة الحرّة المختصّ باللغة والثقافة الألمانيتين في العهد الوسيط إلّا على مساعدين ثلاثة، وظّفتهم مدينة برلين لمعالجة هذه المادة الضخمة. أمّا المكافآت التي يحصل المتعاملون مع المركز عليها، وهم نحو مائتين من جمهورية ألمانيا الاتّحادية والنمسا وسويسرا والولايات المتّحدة، فتتكفّل بها دار النشر بيتر لانغ في مدينة برن كما تتكفّل بنفقات الطباعة.

معــرض فان غوغ في متحف مدينة إسّن

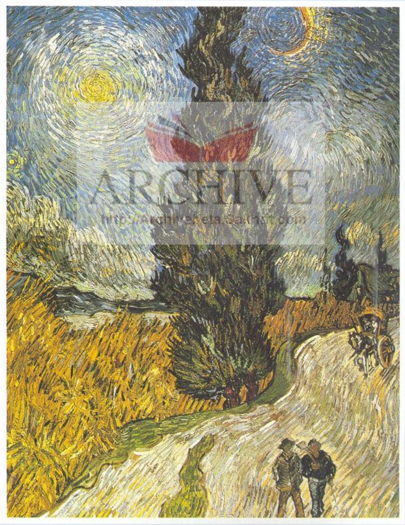
سبق هذا المعرضَ معرضٌ ضخم في هولندا للرسام الشهير فان غوغ الذي توفي قبل قرن. وقد زار معرض هولندا أكثر من مليون زائر. أمّا معرض إسّن، فنُظم في متحف فولفغانغ موزيوم، وكان عنوانه «فينسانت فان غوغ والرسم العصري». وجُلب إليه أربعة وخمسون من أعمال الفنان الفذة التي بلغت أثمانها أرقاما خيالية في المزادات العلنية، إذ فاق، على سبيل المثال، ثمن اللوحة «صورة الدكتور غاشيت» 135 مليونا من الماركات. كما جُلب إلى معرض إسّن 132 لوحة من لوحات مشاهير الرسامين العصريين أمثال مانتيسه، وبيكاسو، وماكه، وشيله، وبيكمان بغرض إبراز الأثر الهام الذي كان لفان غوغ في تكوين طليعة الرسم الأوروبي.

وقد بُذلت جهود جمّة في إعداد هذا المعرض، بدأت منذ مايو 1989؛ فكان على المنظمين أوّلا أن يلتمسوا من أصحاب اللوحات إعارتها للمعرض. وقال أحد أصحاب الشركات التي نظمت شحن اللوحات ونقلها: «لم يكن من السهل إقناع أصحاب اللوحات بإعارتها للمعرض إذ كان منهم من يشفق من مفارقتها إشفاق الأب من مفارقة ولده. أمّا أعمال النقل في حدّ ذاتها، فلم تكن إلّا جزءاً يسيراً من العمل الإجمالي، ولم تبلغ منه سوى عشرة في المائة». ونذكر من أعمال الإعداد لهذا المعرض ما تعلّق بالحفاظ على اللوحات الثمينة والتأمين عليها عند الدور المختصة التي جعلت لها صناديق معدّة إعداداً خاصاً، مكيّفاً هواؤها ومنظّماً مقدار رطوبتها وحرارتها. هذا

بالإضافة إلى معاملات الجمارك والحجز في الفنادق للسُّعاة الذين لم يغفلوا لحظة عن حراسة النفائس التي ائتمنوا عليها.

وقد وردت إلى مدينة إسّن اللوحات في صناديقها من مدن وبلدان شتّى كأستراليا وهونغ كونغ والولايات المتّحدة وأوروغواي وبلفاست وغوتنبرغ ولينينغراد. وكان الصندوق الوارد يترك أربعا وعشرين ساعة ريثما «تتعوّد» اللوحة على جوّ المكان الجديد، ثمّ تخرجها من الصندوق بكلّ رفق خبيرة بإصلاح اللوحات وتفحصها فحصا دقيقا، باحثةً عَمَّ يكون أصابها أو أصاب صندوقها من الأضرار أثناء النقل، وإن كانت طفيفة جدّاً.

تجاوز معرض فان غوغ الأخير بمدينة إسّن مجال العرض الفني المألوف، وطرح أسئلة حول التأثير الذي كان للرسام الكبير في من جاء بعده من الرسامين. وكان المعرض فرصة فريدة لتوضيح هذا التأثير، إذ ضمّ لوحات أصلية نفيسة جدّا لفان غوغ ونخبة من الرسامين العصريين.



فينسانت فان غوغ، درب ذو شجر وعربة ونجم. مايو 1890، 92x73

متحف لأعمال الفنّان بويس في منطقة الراين السفلى

سيحوي عمّا قليل قصر مويلاند بالقرب من مدينة كليفه بمنطقة الراين السفلى أهّم مجموعة من أعمال الفنّان يوزيف بويس. ونشأ هذا المركز الثقافي بمجهودات الدولة والمواطنين جميعا، كما قال هانس شفير، وزير الثقافة في حكومة ولاية شمال الراين ـ فستفاليا، عند توقيع الوثائق الخاصة «بوقف قصر مويلاند». وقد تبرّع الأخوان فان دير غرينتن لهذا الوقف بأهمّ مجموعة لديهما من أعمال بويس. وتبرّع صاحب القصر بقصره العتيق، بينما تولّت حكومة ولاية شمال الراين ـ فستفاليا، وبلدية كليفه وبلدية بيرد بورغ، نفقات الترميم وإدارة هذا المركز الثقافي. وتقدّر النفقات بنحو أربعين مليون مارك لترميم هذا القصر الذي اجتمع فيه فولتير وفريدريك الكبير في عام 1740. أمّا مجموعة الأخوين فان دير غرينتن اللذين ربطتهما صداقة عقود بالفنان المتوفى في 1986، فتشمل عدّة آلاف من تحف الفن المعاصر ونحواً من 220 عملا من أعمال بويس أنجزها في مرحلة اربعين عاما من النشاط الفني.

موسيقى بروكنر تُعزف في أوتوبويرن

تحمل موسيقى بروكنر طابعا كنسيا واضحا، بل يمكن القول إنّ هذا الموسيقار قد خصّص أعماله للكنيسة، حتى أنّ أحد المترجمين له، إرنست دسي، سماه «موسيقار الاله» لكنّ شهرة بروكنر الواسعة لم تأت إلاّ من السمفونيات التسع التي ألّفها بعد الأربعين، وقد أخذ منه تأليفها وقتا طويلا وكلّفه عناءً ومشقّة شديدين.

ويجمع النقّاد على أنّ السمفونيات التسع تأتي في أعلى مرتبة من أعمال بروكنر، وهو نفسه رأى أنّ كلّ ما ألّفه من قبلها «ملغى ومرفوض». بلغ الفنان إذاً عمق إنتاجه في الشطر الثاني من عمره، وانتهى إلى درجة من العبقرية شهد بها نقاد معتبرون أمثال هانسليك وقادة أوركسترا مثل ليفي.

ونعرض هنا قليلا للسمفونية الخامسة التي تتميّز بالحماسة والقوّة والوجدان، وبمسحة روحانية وبشيء من السرّ وكثير من العمق، في الخاتمة خاصة. وقد عزفت هذه السمفونية فرقة بامبيرغ بقيادة هيربرت بلومشتيت في كاتدرائية مدينة أوتوبويرن. والملاحظ أنّ الحفلات الموسيقية في هذه الكاتدرائية البنيديكتية التي أُسّست في عام 746 ميلاديا تعدّ من أرقى الأحداث والعروض الفنية بمنطقة شفابن في الجنوب الغربي. وكان العزف في القاعة الضخمة المتّسعة لجمهور غفير، وهي لضخامتها تمتصّ شدّة الأصوات وتنزع من الموسيقى حدّتها، حتّى أنّ قرع الآلات النحاسية يرنّ في فضائها بلطف غريب. فإذا أضفت إلى هذا ما تتميّز به فرقة بامبيرغ من رخامة الصوت تبين لك الطابع الرومنتيكي الذي كان للعزف في ذلك الجوّ الخاصّ. ونشير هنا في الدرجة الأولى إلى عزف المقطع الثاني من السمفونية.

وعلى وجه العموم، فلا يخطئ من ينسب الموسيقار بروكنر إلى التيّار الرومنتيكي، إذ هو شغف بالأنغام شغفا يمكنك أن تنعته بالحسية، وهو في ذلك شبيه بالفنّانَين برليوتس ولست.



ـ على بابا والأربعون الحرامي ـ

عرضٌ أوّل في مهرجان لويزنبورغ لعام 1990

افتُتح مهرجان لويزنبورغ الذي انعقد عام 1990 في مدينة فونزيدل البافاريّة بعرضٍ أوّل لمسرحيّة للأطفال مأخوذة من قصّة «على بابا والأربعون الحرامي»، وهي إحدى قصص ألف ليلة وليلة. وقد أعدّها تييودور شوبل للعرض في ذلك المسرح الذي هو أقدم مسارح الهواء الطلق بألمانيا، يقع في جبال فشتل غبيرغه ويتّسم بالصخور الضخمة المحيطة به. وتتبّع العرض الأوّل نحو ألفين من الفتيان والفتيات أعجبوا بالقصّة أيّما إعجاب.

وعُرض خلال هذا المهرجان الذي بدأ في 22 يونيو مسرحيّة «فاوست» لغوته من إخراج غونتر فليكنشتاين. وأدرج المدير هانس بيتر دول في البرنامج بمناسبة الذكرى المائة لتأسيس المهرجان المسرحية الشعبية «الكذاب» للودفيغ أنتسنغوبر (الإخراج: يورغن كايتسيك)، ومسرحية «فويتسيك» لغيورغ بوخنر (الإخراج: هيربرت كريبل).

وفي الختام استضاف المهرجان دار الأوبرا من ميونيخ، فعرضت مسرحيّة يوهان شتراوس الغنائيّة «بارون الغجر» بإشراف كورت روسلر.

وفي الجملة فقد شمل برنامج المهرجان 78 من بين عروضٍ وحفلات. وقد صدر في بدايته كتاب لهانس بيتر دول يعرض لتاريخ هذا المسرح الذي يأتي على رأس مسارح الهواء الطلق في جمهورية ألمانيا الاتحادية.

DER SIEG DER BESIEGTEN
Unterdrückung und kultureller Widerstand
Jean Ziegler
Peter Hammer Verlag
Wuppertal, 1989

جان تسيغلر
انتصار المغلوبين ـ
الاضطهاد والمقاومة الثقافية
دار النشر: «بيتر هامر فرلاغ»، فوبرتال، 1989، 294 صفحة

يصف جان تسيغلر في كتابه الجديد «انتصار المهزومين» الأسباب التي أدّت بمعظم دول العالم الثالث إلى مأزق في المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية، بعد أن تولّت المرحلة الاستعمارية، على مايزعمون. ووجدت الشعوب المستضعفة نفسها عندئذ في وضع جديد قاس، كلّ القسوة، قد فرضه الاستعمار، ينادي بالتقدم وبمواكبة العصر، لكنّه لا يؤدّي في الحقيقة إلّا إلى تحطيم اقتصاد دول العالم الثالث وتفكيك بناها الثقافية.

يعرض تسيغلر بإسهاب لتسرب خرافة التصنيع في مجتمعات إفريقيا، وأميركا اللاتينية، وبلاد الكاريبي، تلك الخرافة التي اخترعها الاستعمار اختراعاً، وفرضها على العالم الثالث فرضاً، لإجباره على الإنتاج الدائم والجهد المتصل. ويلاحظ تسيغلر أنّ هذا الوضع الذي فرضه الاستعمار قد أدّى إلى فقدان دول العالم الثالث هويتها، ويقول إنّ استعادة الهوية شرط أساسي لكي تقيم شعوب العالم الثالث كياناً يناسب أحوالها الحضارية ويحقّق لها ما تصبو إليه من رخاء.

ويُرجع تسيغلر الثورات المتواصلة في إفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية إلى أنّ المجتمعات في تلك البلاد قد اضطهدت أوّلاً عسكريا وسياسيا، ثم اقتصاديا وماليا من أوروبا والولايات المتّحدة على وجه الخصوص. وفُرضت على تلك المجتمعات أنظمة معكوسة، غوغائية، منافية لكلّ ماهو معقول ومنطقي. فشعوب العالم الثالث تناضل ضدّ الأوضاع وتناضل لاسترجاع تراثها وعاداتها التي كادت تضيع. ويصف تسيغلر هذا النضال بأنّه تمرّد ثقافي، وهو في كفاح الشعوب المستضعفة بمنزلة الخمير من العجين. ويأسف تسيغلر على أن يكون هذا التمرّد الثقافي يتّخذ أكثر فأكثر طابع الكفاح السياسي الأيديولوجي، كما نلمسه في النزاعات الواسعة التي تشمل العالم الثالث من كوبا إلى نيكاراغوا مرورا بأنغولا وموزامبيق وأفغانستان. فتحوّل التمرّد الثقافي إلى كفاح سياسي وأيديولوجي هو في رأي تسيغلر تحوّل عقيم، إذ تتّخذ فيه المقاييس السائدة في المجتمعات الصناعية بتعديل طفيف، فيتبنّاها أصحاب النفوذ في العالم الثالث، وكثيرا ما يكونون من أهل الفساد والرشوة، ويبطلون بالمقابل العلاقات الاجتماعية التقليدية.

وأمّا المسلك الوحيد الذي ينتهي بتلك المجتمعات المستضعفة إلى الخلاص، فيراه تسيغلر في المقاومة الثقافية، أي في أن تعود تلك الشعوب إلى أشكال حياتها الخاصة وأن تعزّز طريقتها الخاصة في تصريف أمورها اليومية.

أمّا تسيغلر فهو أستاذ لعلم الاجتماع في جامعتي جنيف والسوربون. ويدعم نظريته هذه بأمثلة عديدة، منها تعاونيات صيادي الأسماك في جزر الرأس الأخضر، والمجموعة الثورية بقيادة توماس سنكرا في بوركينا فاسو، وبعض قبائل الهنود الحمر في البرازيل، والمسكيتو في نيكاراغوا.

إنّها نظرية تستأهل نقاشا واسعا، من دون شكّ. ويتضّح لقارئ الكتاب أنّ عملا هائلا لا بد منه لكي تتجاوز شعوب العالم الثالث البنى الاجتماعية القمعية إلى وضع تستعيد فيه ـ بتجديد ـ تراثها وجذورها، فتقيم ثقافة وطنية تكون المنبع لهوية عصرية وأصيلة في ذات الوقت.

بيتر هوفمايستر

NATION UND GESCHICHTE
Wolfgang Mommsen
Piper Verlag,
München, 1990

فولفغانغ مومسن *
أمّة وتاريخ
عن الألمان والمسألة الألمانية
دار النشر: «بيبر فرلاغ»، ميونيخ، 1990 ، 200 صفحة وصفحة

يتضمن هذا المجلد مجموعة من الدراسات لم يُقصد بها إلى التحليل الشامل، فهي لا تشكل عملا متكاملا. وإنّما المراد هنا تقديم بعض وجهات النظر في هذه المسألة الكثيرة الجوانب. يأتي الكتاب بتسع مقالات نشرت بين 1978 و1989 ، تعالج موضوعين أساسيين من موضوعات التاريخ الألماني: الوعي التاريخي لدى الألمان ومفهومهم للأمّة.

بعد أن أخفقت محاولتان في القرن العشرين لإرساخ الهيمنة الألمانية في أوروبا، جاء العام 1945 مؤذنا بتدهور فكرة الدولة القومية الألمانية تدهورا بعيدا، وبصيرورتها إلى اضمحلال بدا نهائيا، لانهضة بعده. أمّا الألمان، فباتوا يرون أنفسهم شعبا من المنبوذين بعد تلك الهزيمة العسكرية والسياسية الشاملة التي قصمت ظهر وطنهم. وجاء ردّ الفعل، فَتَحرَّم، في البداية، كلّ ما اتّصل بالقومية، وصار الألمان يغالون في تجنبه. ولم يعودوا يذكرون بكلمة ما عاشوه في ماضيهم الفظيع، إنّما تركت عامة الشعب لأصحاب الاختصاصات في التاريخ والسياسة مهمة البحث في مسائل التاريخ والسياسة وتقويمها. غير أنّ رجال السياسة مالبثوا أن أخذوا المبادرة، فأسّست جمهورية ألمانيا الاتّحادية في عام 1948 . وعرف أدناور وقتذاك كيف يستغلّ ماكان من التيارات ذات النزعة القومية التقليدية المعتدلة، وتوجيهها لتوطيد جمهورية ألمانيا الاتّحادية، مستعينا في ذلك بفكرة الوحدة الأوروبية. وقد كتب الفيلسوف كارل ياسبرس حول اندماج جمهورية ألمانيا الاتحادية في العالم الغربي: إنّ تاريخ ألمانيا قد انتهى، لكنّ تاريخ الألمان لم ينته. وواضحٌ أنّ رأي ياسبرس ههنا لم يعد مستقيما في الأساس بعد الأحداث السياسية الكبرى التي شهدتها ألمانيا مؤخراً، ولم يعد كذلك مستقيما الرأي القائل بجعل فكرة أوروبا الموحدة تقوم مقام فكرة القومية الألمانية.

والتحليل الموضوعي يُطلع القارئ على أنّ مقال فريدريك مانيكه بعنوان «الكارثة الألمانية» كان بدايةً لأبحاث مثمرة ونقدية، قام بها المؤرخون في أصول التراث الألماني. وجرت هذه الأبحاث كثيفةً في سنيّ الستينات والسبعينات لاستدراك ما ضاع من وقت ولسدّ الثغرات التي كانت في تحليل التاريخ الألماني. ويظهر اهتمام الألمان من جديد بماضيهم القومي في النجاح الكبير الذي كان لمجموعة من المعارض التاريخية الهامة التي بدأت تنظّم منذ أواخر السبعينات، نذكر منها على وجه الخصوص «المعرض البروسي الكبير 1981» في برلين. ومع نموّ اعتداد الألمان بنفوسهم وبتاريخهم نشأ حول تحليل التاريخ جدال بين ذوي الاتجاه اليساري وذوي الاتجاه المحافظ الجديد. وقد ساهم في ذلك الجدال مؤرّخون معروفون منهم: هانس ـ أولريش فيلر، وميخائيل شتورمر، وأندرياس هيلغروبر، وإرنست نولته. والملفت أنّ هذا الجدال بين المؤرّخين كان له صدى بعيد في البلاد، ورغّب الألمانَ في معرفة شاملة لتاريخهم، وحملهم على العزف عمّا كانوا عليه من تجاهل لتاريخهم. وظهرت أيضا لدى المواطن الألماني رغبة في تعرّف موقعه التاريخي في المجتمع. لقد ولّت الأعوام «الباسمة» التي انشغل فيها الألمان بإعادة بناء بلدهم وبالإتيان «بالمعجزة الاقتصادية». وها هم يتساءلون الآن عن هويتهم الاجتماعية وعن موقع جمهورية ألمانيا الاتّحادية ضمن التاريخين الألماني والأوروبي. وهذا واضح لمن تتبّع تطور المسألة الألمانية وعملية الوحدة التي تحققت بين جمهورية ألمانيا الاتحادية والجمهورية الألمانية الديمقراطية.

بيتر هوفمايستر

* فولفغانغ مومسن أستاذ للتاريخ الوسيط والمعاصر بجامعة دوسلدورف، وهو أيضا رئيس جمعية المؤرخين بألمانيا.

SELIM ODER DIE GABE DER REDE
Sten Nadolny
Piper Verlag, München, 1990

ستين نادلني
«سليم أو مَلَكة الخطابة»
دار النشر : «بيبر فرلاغ» ،
ميونيخ ، 1990 ،
502 من الصفحات

تتزاحم الأحداث في رواية ستين نادلني الجديدة التي عنوانها «سليم ، أو مَلَكة الخطابة» ، والتي ظلّ القارئ سبع سنوات يترقّب ظهورها . لقد صار الآن نادلني من أعلام الأدب الألماني ، ظهرت مواهبه جليّةً بعد 1980 ، إذ حصل على جائزة إنغبورغ ـ باخمان الأدبية . وكان كاتبنا وقتذاك شبه مجهول عندما صدرت روايته الثانية «اكتشاف البطء» ، فلفت فصل رائع من فصولها النقاد ، فكان ذلك سبب إحرازه الجائزة .

وجاءت العناصر الأساسية في رواية «سليم» متداخلة ، جعلت من هذه الرواية ما يشبه المرآة للأوضاع المعاصرة في ألمانيا . وفي أحداث الرواية بطءٌ وتأنٍ ، وفيها ترحال واضطراب . والكتاب يروي أحداثا متّصلة بالأوضاع في جمهورية ألمانيا الاتّحادية على مدى ربع قرن ، وبخاصة تلك الأحداث المتصلة بالعمّال الأتراك ، وهم غرباء في مجتمع ينظر إليهم بشيء من الريبة وسوء الظنّ . هذه الأحداث تدور حول البطل «سليم» ، وأحداثٌ أخرى تدور حول بطل آخر ، وهو ألكسندر . ذلك أنّ هذا الشاب الألماني كان من جيل «عام 1968» ، أي من أولئك الشباب ، أبناء الجامعات خاصّة ، الذين خرجوا إلى الشارع محتجين على الأوضاع السائدة . وقد عاش ألكسندر ما عاشه هؤلاء الشباب من الضغوط الاجتماعية .

وعلى اختلاف تكوينهما نجد البطلين متشابهين في سلوكهما ، ثم نراهما يلتقيان أوّل لقاء في قطار خرج من إسطنبول إلى مدينة كيل في شمال ألمانيا . كان ألكسندر في الخدمة العسكرية ، وقد أنهكه الملل ، فاندفع يتمرن على البلاغة ، ثمّ انتقل بعد الخدمة العسكرية إلى برلين يدرس فيها . أمّا سليم فقد تعلّم ، أولّ ما تعلّم من الألمانية ، في ترسانة بحرية ، ثم عمل في سفن الملاحة الداخلية على نهر الماين . وكان له نشاط رياضي ، فكان مصارعا في النادي الرياضي ببلدة كورب . ويلتقي سليم وألكسندر لقاء ثانيا في عام 1967 في أحد مقاهي برلين ، فتبدأ بينهما صداقة طويلة .

تنتهي أحداث الكتاب برحلة ألكسندر إلى تركيا للقاء صديقه سليم ، كان ذلك في عام 1988 ، أي عشرين سنة بعد لقائهما الثاني .

ونلاحظ أنّ الكاتب عالج هذه المدّة بأساليب سرد مختلفة ، مسرعا أحيانا في السرد إلى حدّ الإسراف ، كأنّما يكتب برقيات . وتزاحمت الأحداث في القسم الثاني من الرواية ، أحداثٌ جانبية تتعاقب ، وشخوص تظهر وتغيب ، ثمّ أجزاء من مذكرات ، ومسودات من محاضرات ألكسندر تُقحَم ، ثمّ يخرج جميع ذلك من عالم الواقع .

يتّضح في شخص ألكسندر وصديقه سليم الموضوع الأساسي الذي تعالجه الرواية وهو خيبة أمل الطلبة اليساريين عندما انتهت ثورتهم إلى غير نتيجة ، فلُقِّنوا دروسا مرّة ، وانتقلوا من «نشوة التنظير» إلى مرارة الواقع اليومي . ويجاري أسلوب الرواية محتواها ؛ فالعامل الذاتي ينمو أثناء السرد حتّى أنّ الرواية تكاد تتحوّل إلى شتات من القصص القصيرة . فالقصّاص لا يكاد يُخبر سوى عمّا تعرّض إليه من أحداث .

وقد كان الفيلسوف الفرنسي جان ـ فرانسوا ليوتار قد وصف هذا الأسلوب بأنّه «انحطاط الرواية الكبيرة» .

ولا يخلو هذا الكتاب من الخفّة والحركة لما جاء فيه من الأحداث الطريفة ، ومن ملاحظات سجّلها سليم عن الألمان وعن مجالات عمله ، وأخرى سجلها ألكسندر عمّا عاشه أثناء الثورة الطلابية .

بيتر هوفمايستر

LEBEN IM SULTANSPALAST-MEMOIREN AUS DEM 19.JAHR-HUNDERT
Emily Reute
Athanäum Verlag, Frankfurt, 1989

إميلي روته
«في قصر السلطان ـ مذكرات من القرن التاسع عشر»
دار النشر: «إتانيوم فرلاغ»، فرانكفورت، 1989،
طبعة جديدة منقحة تنقيحا بسيطا من كتاب «مذكرات أميرة عربية»، برلين، 1886

بصراحة.. ألم تخامرك الأحلام مرّة، وقد سرح خيالك بك إلى قصور السلاطين، وبخاصّة إلى تلك الأجنحة التي تسكنها نساء السلاطين حرائر وإماء؟ وما عسى أن تجري الحياة عليه في تلك الأجنحة؟

تحدّثنا عن ذلك إميلي روته التي هي ليست سوى الأميرة سلمى، إحدى الأميرات في سلطنة عمان التي امتدّ نفوذها وقتذاك إلى جزيرة زنجبار. كانت إذن إحدى بنات السلطان، ولدتها له مملوكة شركسية. وترعرعت الاميرة في زنجبار، ثمّ هاهي في يوم من الأيام في 1866 تتسلّل من قصرها تاركة الأهل والصديق لتتبع التاجر الألماني هاينريش روته، وهو من هامبورغ، فتتزوجه وتنزح عن وطنها غير مبالية بما تركت من ملك وجاه. ثمّ لم تمض ثلاث سنوات حتى مات التاجر في حادث، وقد ولدت له الأميرة ثلاثة أطفال.

في عام 1886 نشرت الأميرة مذكراتها في كتاب عنوانه «مذكرات أميرة عربية». وكان الاهتمام بهذا الكتاب كبيراً، وسرعان ماترجم إلى عدّة لغات. لكنّ القارئ الأوروبي، مع كلّ هذا الاهتمام، لم يجد في الكتاب ما يشفي فضوله وحبّ استطلاعه، ويغذّي تصوّراته تلك الاسطورية عن قصور أمراء الشرق. فهذا الكتاب جاء واصفا، متّصلا بالواقع، بعيدا عن الغلوّ. تصف لنا سلمى الوسط المليء بالنشاط، الزاخر بالألوان الذي عاشت فيه طفولتها، فتحدّثنا عن الشؤون اليومية، وألعاب الأطفال، والخروج إلى الريف في رحلات ممتعة أو الخروج إلى تلك العين ذات الخواصّ الشفائية الخارقة. وتصف لنا الأطباق والمأكولات، والمدرسة، والتدرب على ركوب الخيل، والسفن، وقد أرست حاملة الخيرات من الأقطار البعيدة. وعلى العموم، فإنّ هذا الكتاب دقيق الوصف، كثير التفاصيل، غزير المادّة: نقرأ فيه عن شتّى المجالات، كمولد الأمراء ونشأتهم في الصغر، والملابس، والحلي، والحياة الزوجية، ومكانة المرأة، والصيام، والرقّ، ومعالجة الأمراض. وتحدّثنا الأميرة في مذكراتها عمّا كان يجري من الدسائس، وتروي لنا أخبار ثورة اندلعت، كانت ذات علاقة بالسياسة الاستعمارية التي كان يتّبعها بيسمارك والانكليز.

وظلّ حنين الأميرة سلمى إلى وطنها شديدا متّقدا، وكان أحبّ شيء



إليها أن تزوره مرّة، لكنّ طلباتها كانت تردّ، وكان ذلك يؤلم الأميرة ويؤذيها في روحها وجسمها، حتى كادت تيأس من رؤية وطنها الحبيب ثانية. لكنّ طلبا لها بالزيارة يلبّى بعد تسع عشرة سنة، فتعود إلى زنجبار مع أولادها.

في هذا الكتاب كثير من العمل الذي أجهد الذاكرة، وفيه كثير من التحليل النفسي، فكأنّ الأميرة أرادت بذكرياتها وبالرجوع إلى نفسها أن تعالج ألم الغربة. ولغة الأميرة الخالية من التكلّف، والتفاصيل الكثيرة في كتابها، وما فيه أيضا من وصف للمجتمع يجعل هذا الكتاب عملا إثنولوجيا أكثر منه مذكّرات أدبية على منوال كتّاب القرن التاسع عشر. والطريف في هذا الكتاب هو أنّ الأميرة ترجع إلى ذكرياتها، فتأخذ الذكرى وتقابل بين الأوضاع التي اتّصلت بتلك الذكرى في بلادها وبين الأوضاع المشابهة في ألمانيا. وتستحسن الأميرة مرّة هذه العادة أو تلك في زنجبار، ومرّة أخرى في ألمانيا. ونلمس أنّ الأميرة، مهما كان حنينها، لم تحاول إخفاء ما شاهدته في وطنها من قبيح وما عاشته من أليم. لكنّ الأميرة تظلّ متعلّقة بوطنها الذي قضت فيه سني الطفولة، لا تعدل به وطناً آخر، شأنها في ذلك شأن كل الناس.

ريغينه غروس

SCHWESTERN UNTERM HALBMOND
Naila Minai
Klett-Cotta, Stuttgart, 1984

نائلة مناي
«النساء في الإسلام ـ التقاليد والتحوّل في الشرق الأوسط»
دار النشر: «كليت ـ كوتا»، شتوتغارت، 1984،
272 صفحة

هذا الكتاب ترجمته إلى الألمانية رُوث أشلامة من الأصل الإنكليزي الذي صدر من دار النشر Seaview Books في نيويورك عام 1981.

ويحاول الكتاب ـ بطريقة شيّقة جدّاً ـ أن يلفت القارئ الغربي إلى الحضارة الإسلامية وتقريبها إليه.

ولا شكّ في أنّ هذا الكتاب مفيد أيضا للقراء العرب، رجالاً ونساء، وخليقٌ بأن يجلب انتباههم، لأنّ المؤلفة، في مخاطبتها غير المسلمين، عمدت إلى عرض المشاكل ببساطة وشمول في ذات الوقت.

والكتاب يبرز قدرة نائلة مناي على السرد والقص عندما تطوف بالقارئ في ماضي النساء المسلمات وحاضرهن، أو تصف له تحوّل المجتمع من البداوة إلى الحضارة، أو عندما تقصّ عليه أخبار الرسول وزوجه خديجة، وأخبار سيّدات كثيرات ذوات طباع فذة، قد تركن أثرهن في التاريخ الإسلامي. ثم تنتقل المؤلفة إلى الحاضر فتصف محاولات النساء تحديد مواقعهن في البلاد الإسلامية التي تصطدم فيها الحضارتان الشرقية والغربية.

تصف نائلة مناي عالم هؤلاء النساء من ناحيتين: ناحية تاريخية وأخرى شخصية. وزارت الكاتبة العديد من أخواتها المسلمات في تركيا والشرق الأوسط، وشمال إفريقيا ومكثت زمنا هنا وهناك بين ظهورهن، فسمعت منهن وسمعن منها. وقالت نائلة إنّها لم تعمد في هذا الكتاب إلى إعداد دراسة شاملة لنساء تلك المناطق، وإنّما أرادت أن تقول رأيها وتعبّر عن وجهة نظرها كامرأة مسلمة، اختلفت إلى بلاد الشرق والغرب واستوعبت حضاراتها.

عرضت نائلة مناي في الفصل الأول من الكتاب للجوانب التاريخية، وعرّفت بالخلفيّة الدينية والحضارية، فذكرت نساء شهيرات، منهن أمهات المؤمنين كخديجة وعائشة، ومنهن الخنساء، والخيزران ذات الدهاء السياسي، ورابعة العدوية الشاعرة المتصوفة وغيرهن. وهؤلاء النساء قد تركن أثرهن العميق في عقلية المرأة المسلمة. وهنّ على كلّ حال حاضرات في الذهن، خالدات الذكر أبدا. وترى نائلة مناي أنّ «العالم الإسلامي هو اليوم أكثر ما يكون اعتزازا بسلفه من النساء».

خصّصت الفصل الثاني للمراحل المتعاقبة في حياة المرأة، فعرضت للطفولة، ونشوّ المرأة في زمن سريع التغيّر، وكتبت عن الأرامل والشيخات.

أمّـا الفصـل الثـالث والأخير من الكتـاب، فتعالج الكاتبة فيه مواقف طائـفـتـين من الـنـسـاء المسلمات كـبـيرتـين: الـلائي يطمحن إلى النهضة والتجديد من وجهة نظر إسلامية، مع كل ما يثيره ذلك من مشكلات، ثمّ اللائي اتّخذن المهن وملن إلى بعض مفاهيم الحرية الغربية.

كتبت نائلة مناي «أنّ النساء يكنّ أوّل من يتضرّر في مجتمع تضمحل فيه الأسرة الكبيرة، وتظهر فيه عزلة المدن، والبطالة، والاستغلال الجسدي، ويقلّ فيه شأن كبار السنّ وكلّ من لا يخدم التقدم الصناعي خدمة مباشرة». وما كانت النساء ليبحثن في العزلة البيتية عن حلول لمشاكل المجتمع المعاصر، ولا هنّ بباحثات عنها في الغرب، فهنّ لا يؤمنّ بكلّ القيم الغربية. فالمسلمات



نائلة مناي

صَحَوْن وأقبلن على تراثهن باحثات فيه.

ولا ترى نائلة مناي من الحكمة أو النفع أن تجتهد المسلمات في بعث الماضي، إنّما ترى الكاتبة الحلّ في الإسلام، هذا الدين السمح الذي أتى بالتوازن في المجتمع والبيئة منذ أيّامه الاولى، أيّام خديجة وعائشة.

فهذا الدين قادر على حلّ مشكلات المجتمع المعاصر المختلّ، وإعادة التوازن إليه. وتقول الكاتبة إنّ هذا الحلّ قد يكون بداية تعاون صادق بين الشرق والغرب.

وعلى العموم، فقد جمعت نائلة مناي في كتابها طائفة من المعلومات ضخمة وعرضتها عرضا شيّقا، وصوّرت حالة المرأة في البلاد الإسلامية المختلفة تصويرا دقيقا. واعتنت ببلاد البحر الأبيض اعتناء خاصّاً، فدرست النساء المنتميات إلى طبقات مختلفة، ودرستهن في عصور متعدّدة. ولا يقلّل من شأن الكتاب بعض المعلومات القليلة التي يعوزها شيء من الدقة.

ولدت نائلة مناي في اليابان في عائلة تركية، ونشأت في تركيا، ودرست في بركلي والسوربون. وهي تعمل اليوم صحافيةً حرّةً ومراسلة للأمم المتّحدة في الولايات المتّحدة وفي تركيا أحيانا.

ريغينه غروس



KURZGESCHICHTEN AUS MAROKKO
Schriftenreihe des Goethe Institutes, herausgegeben von Wolfgang Ule
Casablanca, 1990

قصص قصيرة من المغرب
سلسلة المنشورات لمعهد غوته، إصدار فولفغانغ أوله، الدار البيضاء، 1990

ظهر مؤخراً في سلسلة المنشورات لمعهد غوته كتيّب بعنوان «قصص قصيرة من المغرب»، يحتوى على 44 صفحة. وجاء هذا الكتاب في هيئة متواضعة، فهو مكتوب بالآلة الكاتبة ومغلّف بالورق. لكنّ بساطة الشكل لا تقلّل أبدا من أهمية هذا الكتيّب الذي يعطي القارئ الألماني فكرة أولى عن الأدب المغربي في المرحلة الراهنة.

ظهر هذا الكتيّب في موعد الاحتفال بالذكرى الثلاثين لتأسيس معهد غوته بالدار البيضاء، وكان أوّل محاولة من هذا المعهد لتعريف القارئ الألماني بعض جوانب الفكر المغربي. وقد اعتمد معهد غوته في ذلك القصّة القصيرة التي تحكي الحياة اليومية في المغرب.

وقصص الكتيّب ليست من المجموعات التي أحكم اختيارها لتمثّل أدب البلاد أحسن تمثيل وأكمله، وإنّما هي مجموعة أريد بها التنوّع، وأريد بها تحريك رغبة القارئ في الاطلاع على الأدب المغربي. ومع أنّ هذا الكتيّب - لصغره - لا يطوف بكامل النشر المغربي المعاصر، بل يشير إليه إشارةً، فإنّه يصوّر بعض المشاكل الثقافية والاجتماعية التي يعيشها المغرب، كما يعرض ما يتّسم به أصحاب القصص من قوة الخيال وروح النكتة، تلك النكتة التي نجدها عندهم دعابة أحيانا ومرارة وحسرة أحيانا أخرى.

ريغينه غروس

